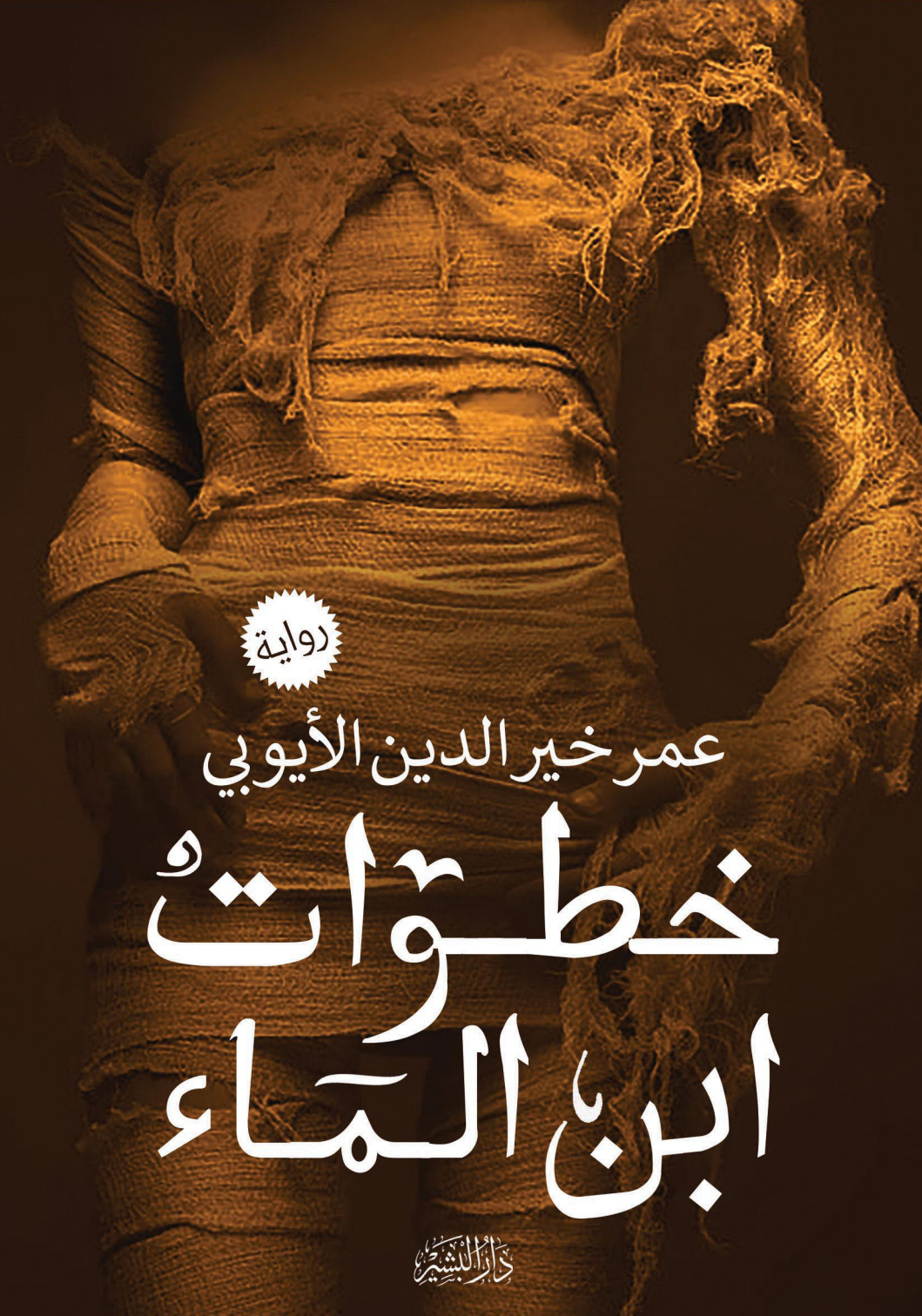
رواية
عمر خير الدين الأيوبي
خطوات ابن الماء
دار البشير

خطوات ابن الماء

الطبعة الأولى
1442 هـ
2021 م

اسم الكتاب: خطوات ابن الماء
التأليف: عمر خيرالدين الأيوبي
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 200 صفحة
عدد الملازم: 12.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2021 / 3641
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 848 - 4

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

خطوات ابن الماء

رواية

عمر خيرالدين الأيوبي

دار البشير للثقافة والعلوم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١)

قبل ٢٥ سنة:

حمل الدكتور شعبان حقيبته بحذر شديد، وألقى نظرة عجلى أخيرة على الجثمان المسجّى أمامه، ثم مسح بطرف كمّه الدموع من عينيه، وأخذ شهيقاً عميقاً، ثم فتح باب الغرفة بقوة، ليبدو كما لو كان في عجلة من أمره، ثم أغلقه وراءه، وتقدّم ليشقّ طريقه بين أجساد الحراس الضخام، التي بدت له حينها كالكتل الأسمنتية الصمّاء، وقد تعمّد السير بخطوات سريعة بينهم، ليتجنّب الحوار معهم، غير أنّ صوتاً قويّاً من أحدهم فاجأه قائلاً:

– إلى أين يا دكتور؟

فتوقّف لهنيهة وقلبه يطرق على جدران صدره سريعاً، والتفت ليجيب صاحب الصوت:

– سأحضر بعض المواد الطبية بسرعة، فالوضع لا يحتمل التأخير..

فمدّ الحارس الضخم يده نحوه ببلادة وقال في برود:

– أكتب لنا ما تريد وسنحضره لك..

كاد الدكتور شعبان أن ينهار خوفاً من فشل خطّته، وتفصّد جبينه عرقاً، لكنّه استجمع رباطة جأشه وقال بصوت قوي يوازي قوة صوت الحارس:

– سأكتب لك ما أريد، ولكن هل تستطيع إحضار كل هذه المواد خلال عشرين دقيقة؟

شعر الدكتور شعبان بارتباك الحارس من أثر سؤاله، فعاجله قائلاً:

– إن لم تحضر المواد التي أريدها خلال عشرين دقيقة ستموت الدكتورة مريم، فهل تريد أن أخبر السيد هاملر بأنك كنت السبب في وفاتها؟

جفل الحارس الضخم وارتدّ إلى الوراء لمجرد تفكيره بهذا الاحتمال، فقد لاحظ بوضوح كيف يهتم السيد هاملر بهذه السيدة من دون أن يعرف السبب، والتفت فوراً نحو الدكتور وقال له مشيراً بيده:

– اذهب.. اذهب..

انطلق الدكتور شعبان مسرعاً، وخرج من المنزل الذي كان مأواه هو والدكتورة مريم طيلة الأشهر التسعة الماضية، في هذه المنطقة النائية من أطراف مدينة نيقوسيا في قبرص، وها هو اليوم يغادره تاركاً خلفه جثة الدكتورة مريم التي توفيت بين يديه قبل لحظات، وكم كان يتمنى أن يتولى القيام بدفنها بنفسه، غير أن السرّ الذي ائتمنته عليه والذي يحمله في حقيبته كان أكبر من كل أمنياته.

ركب السيارة الفارهة مسرعاً ووضع الحقيبة بعناية على المقعد المجاور للسائق، وانطلق لا يلوي على شيء سوى الابتعاد عن هذا المنزل قدر المستطاع، إذ سرعان ما سيعلم الحراس المرابطون عند باب غرفة الدكتورة بوفاتها، ويبدأون بمطاردته. وبعد ساعة واحدة بلغ ساحل البحر، فأخذ يسير ببطء متأمّلاً في أشكال البحارة حتى وجد ضالته.

أوقف سيارته وهبط حاملاً حقيبته بحذر، وتوجّه نحو أحد القوارب التي وقف عندها رجل يرتدي نظارة سوداء، فلما رأى الدكتور شعبان قال له:

– ها هو الزورق الذي طلبته، وقد ملأت لك ما يكفي من الوقود لتصل حيث تريد..

لم يتكلم الدكتور بكلمة، واكتفى بإعطائه مفتاح السيارة التي كانت قيمتها أضعاف سعر القارب، لكن مهمته اليوم وحياته تستحق هذه المبادلة الظالمة.

ركب القارب ووضع الحقيبة بجواره وانطلق مسرعاً نحو البحر وحين اطمأن لابتعاده عن الساحل قدراً كافياً، أوقف الزورق في عرض البحر، وأخذ الحقيبة في حضنه، وفتحها، ولم يكن فيها سوى طفلة جميلة عمرها ساعة واحدة، فابتسم وهو ينظر لوجهها الجميل قائلاً: «لقد نجحنا يا آسيا».

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(٢)

بعد ٢٥ سنة:

«آسيا»

فتحت كلية الآداب في جامعة بغداد أبوابها كالعادة عند الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي الحار، لتندفع من خلالها أمواج الطلبة خارجين في آخر أيام العام الدراسي، والذي سيستريحون بعده ثلاثة أشهر.

لم يكن الأمر كذلك مع آسيا، هذه الشابة الجميلة التي أكملت منذ سنتين دراستها الأولية في كلية الآداب، وحازت المرتبة الأولى على قسم التاريخ، تقدّمت بعدها لدراسة الماجستير، وها هي ذي قد أكملت السنة الأولى، لتبدأ مرحلة البحث العلمي حيث لا راحة ولا هدوء في الإجازة الصيفية، خصوصاً لمن كان في مثل حرصها وتفوقها.

سارت آسيا بخطواتها الوئيدة الرشيقة، غير مكترثة بنظرات الإعجاب من حولها، تلك النظرات التي أحاطت بها كلما أقبلت أو أدبرت من كليتها، لأنها قلّما تسير لوحدها في غير ذلك، فأبوها لا يتركها لوحدها إلا على مضض عندما تقصد المدرسة أو الجامعة.

إلا أنّها هذه المرة كانت، وهي خارجة في اليوم الأخير من العام الدراسي، مشغولة الذهن في اختيار موضوع تاريخي مميز لبحث الماجستير، وهي تعلم أنّها لن تقنع بسهولة بأي موضوع يُطرَح عليها، كيف ذاك! وهي الباحثة المتميزة التي اختارت دراسة التاريخ برغبةٍ وسعادة، رغم أنَّها كانت تستطيع بذكائها

الوقّاد واجتهادها، أن تكون طبيبة كأبيها الدكتور شعبان، إلا أنّها فضّلت أن تتخصص في ما تحبُّ وتعشق، وخصوصاً بعد ما رأته من تأييد والدها وسعادته باختيارها قسم التاريخ دون غيره، ولم تفهم في حينها سبب سعادته البالغة بتخصص ابنته هذا.

كانت آسيا تشق طريقها بين الجموع الخارجة من الكلية، غير آبهة بأصوات سائقي سيارات النقل الذين اعتادوا التجمهر في هذا الوقت عند بوابة الكلية، والصراخ بأعلى أصواتهم طلباً للركّاب، معلنين عن وجهتهم، وقد يضيف أحدهم ليغري الركّاب فيصيح أنَّ سيارته مكيّفة، أو أنّه ينقصه راكب واحد لينطلق، وما إن مرّت آسيا وسط هذا الصخب، حتى كان كل سائق يتأمل هذه الشابة الحسناء، بيضاء البشرة، ذات القوام الرشيق، والوجه المبتسم، والعينين اللؤلؤيتين الصفراوين، راجياً أن تختار سيارته، إلا أنَّ خطواتها كانت تقودها دائماً بلا جهد ولا بحث متعب نحو ذات المكان الذي اعتاد أبوها أن يوقف سيارته فيه بانتظارها طيلة سنوات دراستها.

وما إن رأت أباها، ورآها حتى ارتسمت ابتسامة عريضة على محيّاه الدائم العبوس، والذي لم يكن يعرف الابتسامة إلا لمرأى ابنته الجميلة فحسب. فتحت باب السيارة ودخلت لتلفحها نسمات مكيف الهواء في هذا الجو اللاهب، فانتعشت أنفاسها وهي تسلّم على أبيها وتلاطفه كما اعتادت:

– هذا آخر يوم في الدراسة يا أبي، سترتاح من هذه المهمة الشاقة لمدة عام..

ابتسم الدكتور شعبان بسعادة وردّ عليها:

– التعب معك راحة أيتها الأميرة..

ضحكت آسيا وهي تسمع هذا اللقب الذي اعتاد أبوها أن يدعوها به منذ أن وعت وأدركت، من دون أن تعلم سبب اختياره لهذا اللقب «الأميرة»، لكنّها ردّت عليه قائلة:

– يبدو أنَّ أميرتك محتارة في اختيار موضوع البحث الذي ستقدمه للماجستير..

ابتسم الدكتور شعبان وهو ينطلق بسيارته وسط زحام السيارات سائلاً ابنته:

– ألم تخبريني أنَّ لديك بعض العناوين التي رشحها لك الأستاذ المشرف؟

أجابت آسيا وقد تقطّب حاجباها:

– بلى! ولكنّي ما أزال غير مستقرة على موضوع منها، لأنّ معظمها مواضيع سطحية سبق البحث فيها، ولا أجد في تكرار البحث فائدة علمية..

سكت الدكتور شعبان لحظات ليتمكن من تجاوز زحام السيارات التي أمامه، فلما انطلق في الجزء المفتوح من الطريق، التفت نحو آسيا وقال لها بهدوء وثقة:

– لا عليك يا أميرة، ستجدين ضالتك، فالأميرات يعرفن الطريق..

وعاد لينظر نحو الطريق، بينما بقيت آسيا تنظر إليه وتتأمّل وجهه الكهل الذي قارب السبعين من عمره، وقد ترهّل جفناه، وتجعّدت رقبته، فهذا الوجه الذي لم تفارقه يوماً طيلة أعوامها الخمس والعشرين الماضية، وأدركته منذ كان في أوج الرجولة، محيطاً بها من كل زاوية، وملبياً لها كل ما تريد، حتى قبل أن تطلب، فهي لا تذكر أنها رغبت في شيء من ملذات الطفولة والصبا إلا وجدته أمامها، حتى خُيّل إليها في صغرها أنَّ لدى والدها المصباح السحري.

لكنّ هذا الدلال الذي أحاطها به أبوها لم يكن ليغنيها عن طلب إجابات للأسئلة التي طالما راودتها، فكم من مرة سألت أباها عن أمّها، وعن أسرتها وأقربائها، وسألته عن سبب عزلتهما وعدم مخالطتهما لأحد من الجيران، أو الأصدقاء، لكنّها كانت ترصد مع كل سؤال تغيّر ملامح وجهه من دون أي إجابة على الأسئلة، حتى لكأنه شخص مختلف لا يمتُّ لأبيها الذي تعرفه بصلة، فإذا بقيت مصرّة على الحصول على أجابات لأسئلتها، زجرها بشدّة، لم تعتدها منه، وقد تكرّر هذا الموقف في طفولتها مراراً، فأدركت أنَّ هذه الأسئلة خط أحمر لا يمكن تجاوزه، وامتنعت عن سؤاله بعدها مطلقاً.

وقد فسّرت آسيا حرص أبيها على كتمان ماضيه عنها بما قد يحمله من حزن ومآس، وهو الذي طالما حرص على إبقائها سعيدة ومتفائلة، لكنّه ربما لم يعلم أنَّ انقطاع الإنسان عن ماضيه أقسى من معرفة عيوبه، وأنها كانت تتلهف لإضاءة هذا الغموض المحيط بماضيها.

ولولا الصدفة المحضة التي جعلتها تنظف مكتب أبيها يوماً بينما كان خارج المنزل، فوجدت الخزانة الحديدية مفتوحة، لما استطاعت -ربّما- أن تعرف أنّ والدها متخصص في الهندسة الوراثية، وكم كانت دهشتها كبيرة يومها فهي لم تسمع منه يوماً كلمة واحدة عن ذلك، وأمّا باقي محتويات الخزانة فلم تكن سوى مجلات وجرائد قديمة، وظرف قديم أصفر اللون، لم تجرؤ على فتحه.

كانت آسيا تجلس بهدوء مع والدها في السيّارة التي أوشكت أن تصل إلى المنزل، وقد راودتها كل هذه الذكريات، فتأمّلت وجه أبيها، وسألت نفسها: لكن! لماذا يخفي أبي عني كل هذا؟

***

«جورج»

لم يكن الباحث الآثاري الأمريكي العجوز جورج ستيفن يوماً أشدّ قلقاً وتوتراً من مساء ذلك اليوم، حتى إنّه تأخر في الخروج من غرفته في الفندق الفخم في شيكاغو لحضور اجتماع لجنة التحضير لمؤتمر الباحثين الآثاريين في العالم والذي تقرر عقده بعد ثلاثة أشهر، رغم أنه كان يعلم أنّه الشخص الأهمّ في هذا الاجتماع، ولا يمكن للجنة التحضيرية البدء بالعمل من دونه.

بقي مساعدو الدكتور جورج ينتظرون عند باب غرفته مستغربين هذا التأخير، وهم الذين اعتادوا دقة مواعيده، والتزامه الشديد بالوقت، غير أنّ أحداً منهم لم يكن يجرؤ على طرق الباب، لما يعلموه من حرص الدكتور جورج الشديد على عدم انتهاك خصوصياته.

رنّ الهاتف في غرفة الدكتور جورج رنة واحدة، فرفعه فوراً، كان الباحث العجوز يصغي لمحدّثه عبر الهاتف، بعينين جاحظتين، كعادته عندما يكون متوتراً، ثمّ ارتسمت على وجهه مجدداً تلك الابتسامة الصفراء الباهتة التي عُرف بها دوماً، ليردّ عبر الهاتف بكلمة واحدة قائلاً: شكراً لك..

فُتح باب الغرفة فوراً ليخرج الدكتور جورج ستيفن منها بكامل أناقته، وقد ارتدى بدلة رسمية زرقاء داكنة، واضعاً على رأسه الأشيب قبعة زرقاء يتدلّى من طرفها شريط أنيق، وأمّا حذاؤه فكان شديد اللمعان، ولم يكن يعيب هذه الأناقة الظاهرة شيء سوى تلك العصا السوداء التي يصرّ على حملها بيده إلى أي مكان يقصده، ولا يكاد يتكئ عليها إلا ظاهراً، لأنها كانت أعلى من مستوى امتداد يده، وأسمك من دورة أصابع كفه الصغيرة، لذا بدا منظره معها غريباً.

خرج الباحث العجوز بنشاط ليجد مساعديه وقد اصطفوا بانتظاره صفاً، وفي أعينهم أسئلة كثيرة، فلم يقابلهم إلا بابتسامته الهادئة تلك قائلاً: هلمّوا إلى الاجتماع..

وفي القاعة الأنيقة التي خُصّصت لاجتماع كبار الباحثين الآثاريين في الولايات المتحدة، كانت حالة من التململ قد بدأت تسري بين الحاضرين جرّاء تأخر الدكتور جورج ستيفن الذي عُرف بدقة مواعيده، حتى لاح أخيراً بجسمه النحيل عند مدخل القاعة، إلى أن جلس في الكرسي المخصّص له، وألقى التحية على الحاضرين، ثم اعتذر عن تأخره قائلاً:

– العذر منكم أيها السادة.. يبدو أن صاحبكم لم يعد شاباً بما يكفي ليرتدي ثيابه بعشر دقائق..

تقبّل الحضور اعتذار الدكتور جورج بابتسامة بدت على وجوههم، كيف لا؟ وقد دعا نفسه «صاحبهم»، وهو الذي يكاد يكون أستاذاً لهم جميعاً، إذ لا يوجد في الولايات المتحدة أكاديمي آثاري ليس في عنقه دين لهذا الرجل، فقد ملأت أبحاثه الكتب والمجلات حتى عُدَّ مرجعاً لوحده، لا يمكن لباحث أن يعارضه برأي إلا وتعرّض لسيل من الانتقادات وكأنه يقف أمام بحر هائج.

وعلى الرغم من كونه «لا أدرياً» -كما يصرّح دائماً- إلا أنَّ تخصصه الدقيق في علم الآثار كان منصبّاً على بواقي آثار حركة الدين والتدين في المجتمعات المختلفة، وكان لمنهجه القائم على احترام مقدسات الشعوب الغابرة أثر كبير لدى تلاميذه ومريديه.

بدأ الاجتماع التحضيري للمؤتمر بتوزيع لجان العمل الروتينية، وتكليف كل لجنة بمهامها، وتحديد الأوقات اللازمة لكل مهمة، ومرّت الساعات تلو

الساعات، وعندما ظن الجميع أن الاجتماع أوشك على نهايته، وقف الدكتور جورج ستيفن بجسمه النحيل، والابتسامة تعلو وجهه، فدقّ عصاه على الأرض بقوة كافية لجذب انتباه الحاضرين قائلاً:

– أيها السادة المحترمون.. سيكون هذا آخر لقاء لي بكم حتى يوم افتتاح المؤتمر، لأنني سأتفرّغ في الأشهر الثلاثة المقبلة لإعداد أهمّ بحث آثاري في حياتي لأقدمه في مؤتمركم الموقّر..

أخذت الدهشة جميع الحاضرين، وهم يسمعون أستاذهم الكبير يصف بحثه القادم بأنّه أهمّ بحث له، كيف يقول هذا وهو الذي ملأ الأرض بأبحاثه المهمّة العظيمة؟ وأنّى له وهو بهذا السنّ أن يقوم ببحث آثاريّ مهمّ؟

وبين تلفّت الباحثين تجاه بعضهم البعض باستغراب، أكمل الدكتور جورج قائلاً:

– سأسافر إلى مصر في الأسبوع القادم..

***

«شعبان»

قاد الدكتور شعبان سيارته بحذر عند دخول كراج المنزل بعد عودته برفقة ابنته الوحيدة آسيا من الكلية في يومها الدراسي الأخير لهذا العام، مما يعني أنّ أمامه ثلاثة أشهر صيفية لن يحتاج فيها لترميم سيارته القديمة وصيانتها، تلك السيارة التي ما تزال بحوزته منذ خمس وعشرين سنة، هي سنيّ عمر ابنته الجميلة، ولم يكن إصراره على المحافظة على تلك السيارة لقلة ماله، ولا لتعلّقه بها، أو زهده بما سواها، وإنما لأنه سجّلها في سجلّات المرور بوثائق مزورة،

فهو لا يحتاج معها لتزوير المزيد من الوثائق التي تخفي شخصيته، كما فعل عندما دخلت ابنته المدرسة، ثم الجامعة.

لقد عاش الدكتور شعبان حياة العزلة في هذا الحي الهادىء من أحياء بغداد، وحرص بكل جهد أن يخفي كل ما يمكن أن يكشف شيئاً عن ماضيه، حرصاً منه على سلامة ابنته الجميلة آسيا، التي لم يكن يسمح لنفسه بحال من الأحوال أن يتسبب لها بأي أذى، كما فعل في الماضي، لذلك فقد أحاط بابنته من كل اتجاه، فلم يتركها تبتعد عن عينيه لحظة واحدة. منذ أن كانت في مقاعد الدراسة، كان يراقبها عند كلّ درس، وهي تدخل الصف، وتخرج منه، وعندما أصبحت في الجامعة كان يوصلها كل يوم بنفسه، ويتظاهر بأنه يغادر المكان، بينما كان في الحقيقة يلتفّ ليعود لانتظارها في المكان الثابت الذي تعرفه وتحفظه جيداً، ويظل منتظراً حتى تخرج، ولم يخبرها يوماً بصنيعه هذا. وفعل مثل ذلك كل مرة كانت تذهب فيها إلى السوق، أو إلى المركز الصحي، وقلما كان يسمح لها بغير ذلك.

وهكذا كانت حياته طيلة الخمسة والعشرين عاماً الماضية تدور حول ابنته بالكامل، أمّا ما تبقى من الوقت فكان يمضيه على حاسوبه، يبحث في مواضيع تاريخية، وخصوصاً ما يتعلق منها بالحضارة الفرعونية، وربما نقل اهتمامه هذا بمباحث التاريخ لابنته التي اختارت دراسة التاريخ، على الرغم من أنها كانت مؤهلة لأي دراسة علمية أخرى تختارها.

لقد أوشك أن ينسى اختصاصه الحقيقي، فمنذ خمس وعشرين سنة لم يقرأ حرفاً واحداً في الهندسة الوراثية، ذلك الاختصاص الذي كان يعشقه سابقاً، لكنه لم يعد يرغب في ذكر اسمه، واستبدل شغفه ذاك بالتاريخ الفرعوني.

عندما نزل من سيارته، توجّه فوراً نحو مكتبه، وفتح حاسوبه، فنادته ابنته من المطبخ:

– أبي.. هل أضع الغداء؟

فأجابها فوراً:

– نعم.. نعم.. سأكون معك خلال لحظات..

لكنّ خبراً مهمّاً لفت انتباه الدكتور شعبان، جعله يستغرق وقتاً أطول في البحث عن مصادر أخرى له، وبعد مرور دقائق فتحت آسيا باب المكتب فوجدت أباها يحدق باهتمام بالغ بحاسوبه، فقالت له:

– الغداء جاهز يا أبي..

استغرق الدكتور شعبان بضع ثوان ليستوعب كلمة ابنته، فقد كان ذاهلاً عن كل ما حوله، فقال لابنته فوراً:

– سأتناول الغداء لاحقاً يا آسيا..

كانت من المرات النادرة التي لا يناديها بكلمة «أميرة» كما اعتاد، لكنها فهمت أنه مشغول جداً، فعادت لتناول الغداء لوحدها، ثم ارتقت الطابق العلوي من المنزل حيث غرفتها، وفتحت هي الأخرى حاسوبها، لترسل رسالة عبر الماسنجر للدكتور هشام الشرقاوي، الأستاذ المصري الشاب الذي تعرفت عليه مؤخراً عبر الفيسبوك، وحدثت بينهما بعض النقاشات لأنه كان أستاذاً في التاريخ أيضاً، وقد أعجبت بما يمتلكه من القدرة على البحث العلمي، والإصرار في طلب العلم رغم ظروفه المادية الصعبة، وأعجب هو أيضاً بذكائها وفطنتها، ولغتها الرشيقة، وقدرتها على الإقناع، رغم أنه لم ير صورتها ولم يطلب

منها ذلك احتراماً لخصوصيتها، فبقيت العلاقة بينهما علاقة صداقة، أو أكثر من ذلك بقليل، ربما!

ودار بينهما الحوار التالي:

– السلام عليكم أستاذ هشام..

– عليكم السلام.. أهلاً آسيا..

– كنتُ أريد إخبارك أنني أنهيت اليوم الدراسة النظرية في الماجستير..

– ما شاء الله، وماذا بعد هذه المرحلة؟

– بعدها مرحلة البحث العملي..

– بالتوفيق إن شاء الله..

– شكراً لك.. كنت أتمنى أن تساعدني باختيار موضوع للبحث..

– أوه.. بالتأكيد..

– فأخبرني إذن.. هل في ذهنك موضوع ما؟

صمت هشام لحظات ثم كتب:

– لِمَ لا تكتبين في تاريخ الفراعنة؟ سأساعدك كثيراً..

ضحكت آسيا في سرها وكتبت:

– ولكني لا أحب البحث النظري المجرد..

– لم أفهم.. لماذا يكون بحثاً نظرياً؟

– أعني أنني لا أستطيع الحضور لمشاهدة المواقع التي قامت عليها الحضارة الفرعونية، فكيف أكتب بحثاً عنها؟

– ولِمَ لا يمكنك الحضور لمشاهدة هذه المواقع؟

ضحكت آسيا مجدداً وكتبت:

– .. هل تمزح؟ أنا لا أستطيع الوصول لمحل البقالة لوحدي، فكيف أسافر لمصر؟

– خسارة.. كنت أتمنى أن أساعدك في البحث.. و.. أن أتعرف عليك بالصورة والصوت..

أحسّت آسيا بحرارة تملأ وجنتيها.. وفي ذات اللحظة، فتح باب غرفتها، وإذا أبوها يطلُّ برأسه قائلاً:

– حضّري نفسك أيتها الأميرة، سنسافر إلى مصر خلال يومين..

***

«هشام»

بقي أستاذ التاريخ في ثانوية الفيوم هشام الشرقاوي، فاغراً فاه وهو يقرأ الرسالة الأخيرة التي كتبتها له آسيا على الماسنجر، تلك الشابة التي شغلت ذهنه في الأشهر القليلة الماضية، من دون أن يرى صورة واحدة لها. لقد وجد فيها باحثة ذكية ولمّاحة، ولها طموح في الحصول على أعلى الشهادات، وهي في هذا كله تشبهه كثيراً، ولقد كان لقصة حياتها الغريبة المزيد من الإثارة التي جذبته لها، فقد حدثته طويلاً عن الغموض الذي يلفّ ماضي أسرتها، وكيف أخفى أبوها عنها كل معلومة تخصّ أمّها، حتى أنّها لا تعلم اسمها.

أمّا أبوها الدكتور شعبان فحكاية أكثر غموضاً وغرابة، فهذا الرجل أعطى ابنته كل ما ترغب به وتتمناه أي طفلة أو مراهقة أو شابة، إلا أنه حرمها بالمقابل من أن تكون كسائر الناس.

ولقد تمنى هشام أن يكون قادراً على مساعدتها بأي شكل من الأشكال، إلا أنه لم يعرف كيف يفعل ذلك، حتى عندما اقترح عليها أن تجعل بحثها في الماجستير حول الحضارة الفرعونية، كان يعلم أنّ ذلك صعب المنال، إلا أنّ رسالة آسيا الأخيرة التي أرسلتها له كانت مفاجئة جداً، فبعد أن سخرت من مقترحه، عادت لتكتب له:

– لا أعرف ما الذي حصل، لكن أبي قال لي تواً أننا سنسافر إلى مصر خلال يومين.. سأخبرك بالتفاصيل لاحقاً..

كانت سعادة خفية تملؤه، لكنها سعادة ممزوجة بنوع من الدهشة والحيرة.

فهذا الشاب المصري الذي توحي كلّ ملامحه بمصريته العريقة، بلون بشرته القمحي، وعظام وجهه البارزة، وقوامه الرياضي القوي، والذي نشأ في أسرة فقيرة في أرياف مدينة الفيوم الزراعية، وبلغ من العمر سبعاً وعشرين عاماً، لم يكن له خبرة سابقة في التعرف إلى أي فتاة، فقد كان شاباً خجولاً ملتزماً، أكمل دراسته في مدارس الأزهر، وحصل على فرصة التعيين كمدرس لمادة التاريخ في ثانوية الفيوم، فلم يجد بداً من قبولها لتحسين وضعه المادي البائس، إلا أنه صدم بضعف المرتب، مما اضطره للعمل في مجال السياحة، مستغلاً معرفته التاريخية بالآثار الفرعونية.

كان هشام منذ صغره مولعاً بدراسة القرآن الكريم وتعلم كل ما يتعلق به من علوم التفسير، والتلاوة، واللغة وغير ذلك. وبعد أن درس التاريخ دراسة أكاديمية، أصبح مهتماً بالمباحث التاريخية في القرآن الكريم، وكان يرغب أن يكتب أعمالاً أدبية تتضمن ما توصّل إليه في أبحاثه ودراساته الشخصية.

هل يمكن أن يلتقي بهذه الشابة حقاً؟

هكذا كان يسأل نفسه في الساعات التالية منتظراً رسالة من آسيا توضح فيه رسالتها الأخيرة، لكنّه شعر بأنّه مقبل على سعادة غامرة.

وبينما هو في حيرته رنّ صوت الرسالة في هاتفه ليفتحه مسرعاً ويقرأ ما كتبته له آسيا:

– لم أفهم من أبي أي شيء، لكني نظرت في حاسوبه الذي كان يعمل عليه حين قرر هذا القرار الغريب، فلم أجد فيه إلا صفحات كثيرة لوسائل إعلام تتناول خبراً عن وفاة رجل أعمال ألماني اسمه: (هاملر)..

***

«هاملر»

كان على رجل الأعمال الألماني أن يقوم بجهد كبير لينفذ الخطة التي قدحت في ذهن صاحبه القديم جورج ستيفن، لذلك كان يعمل منذ شهرين في تأمين أمواله الطائلة على نحو لا يسمح لورثته بأخذ شيء منها قبل مرور عام كامل على وفاته.

لم يكن من السهل أن يعلن في وسائل الإعلام نبأ وفاته، كما تقضي خطة جورج ستيفن، فرجل بمثل مكانته بين رجال الأعمال وله مصالحه المنتشرة في كل مكان لن تكون وفاته مجرد خبر تتناقله الصحف، إذ سيكون هناك الكثير من التحقيق والأسئلة، خصوصاً وأنه معروف بلياقته البدنية وصحته الجيدة رغم تقدمه في السن، لكنّ قناعته بخطة صاحبه جعلته يفكر في وسيلة شيطانية كما هي عادته.

لقد كان نوعاً من الأشخاص المتغطرسين الذين يريدون امتلاك كل شيء، وتقودهم رغبتهم تلك لارتكاب أبشع الأمور وأخطرها، وإن صدف أن فاته

شيء وهو راغب به فإنه لن يتوانى عن فعل المستحيل لاسترداده، كما حصل معه قبل خمس وعشرين عاماً، عندما أوشك أن يحصل على الكنز الذي انتظره تسعة أشهر، لكن فرار ذلك الطبيب في ذلك اليوم حرمه من مشروعه الأهم في حياته.

كانت عيناه الزرقاوان تقدحان شرراً كلما تذكر تلك الحادثة، فيستشيط غضباً، ولا يتوانى عن تكسير كل شيء أمامه، وكم حاول خلال السنوات التالية البحث عن ذلك الطبيب دون جدوى، حتى اتصل به يوماً صاحبه القديم جورج ستيفن ليخبره عن فكرته، وكيف يمكنه استرجاع كنزه، فعاوده الأمل القديم من جديد، وقرر العمل على تنفيذها.

وبعد أن اطمأن على أمواله ومصالحه، بقي عليه إقناع الناس بنبأ موته، فتوصل أخيراً إلى فكرة حرق جثة رجل ميت بنفس بنيته الجسمية، وقد اختفت ملامح وجهه من أثر الحروق، ليقوم الطبيب الشرعي بعدها بتقديم تقرير مزور عن تطابق الحمض النووي مع رجل الأعمال المشهور (هاملر).

ولم يكن الجزء الأخير من الخطة سهلاً، إذ كان على السيد (هاملر) الحقيقي أن يختفي عن الأنظار، وقد أخذ هذا الجزء من الخطة الوقت الأطول من تفكيره حتى وجد حلاً.

كانت هذه الخطة بطبيعة الحال تحتاج لتكاليف مادية ضخمة ولسرية عالية، لكنّ الهدف النهائي منها كان يستحق كل هذه التضحية.

بعد أن نفذ الخطة بحروفها، ونشرت وسائل الإعلام نبأ وفاته المفاجئ، كان سكرتيره الحزين يحمل هاتفه ويتصل بجورج ستيفن في الولايات المتحدة، فيجيب الأخير فوراً، لينقل له الخبر المؤسف:

– نعم يا دكتور جورج.. لقد تأكدنا.. قبل قليل.. صدر تقرير الطب الشرعي، وأعلن فيه تطابق الحمض النووي مع السيد هاملر..

فلم يسمع سوى صوت السيد جورج وهو يقول:

– شكراً لك..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل الأول

(٣)

قبل ٢٥ سنة:

وقفت الدكتورة مريم عبد السلام بكل ثقة على منصة المحاضرين في قاعة المحاضرات الرئيسية لمعهد الهندسة الوراثية في القاهرة، تشرح العرض الذي أعدته مع زميلها الدكتور شعبان حول مشروعهما الواعد، وقد كانت متأكدة من قبول اللجنة المختصة لفكرتها، فمعظم أعضاء اللجنة الجالسين أمامها هم من أساتذتها الذين يعرفونها تماماً، ويقدّرون ذكاءها واجتهادها، باستثناء واحد منهم، وهو الآثاري الأمريكي جورج ستيفن الذي لم تلتقِ به مسبقاً، والذي لم تكن تعرف سبب تواجده بين أعضاء اللجنة المصريين، الذين كانوا جميعاً من الأطباء المتخصصين بالهندسة الوراثية، لكنها بقيت واثقة من قبول المشروع، فقالت في ختام شرحها:

– إن الذاكرة الوراثية ليست وهماً كما يتصوّر الكثيرون، فقد أثبتت التجارب المنفّذة على الحيوانات إمكانية انتقال الذاكرة المكتسبة عبر الجينات الوراثية للأجيال اللاحقة، وسيكون بمقدور مشروعنا الذي عرضناه عليكم تقديم الفائدة الأعظم للبشرية من هذه الفرضية العلمية لو تفضلتم بقبول تنفيذه، وشكراً.

صفقت اللجنة العلمية المكونة من خمسة أعضاء، كما لم تصفق لأحد من قبل إعجاباً بالدكتورة مريم وزميلها، وقدرتهما على تقديم مثل هذا الطرح الذي أشبه أن يكون خيالاً علمياً من أن يكون مشروعاً علمياً.

كانت فكرة المشروع تقضي بأن يجري مخبرياً حثّ خلية مأخوذة من مومياء فرعونية محنّطة، لتبدأ الإنقسام، ثم يتم غرسها في رحم امرأة متبرعة، لتولد نسخة بشرية فرعونية.

وتزعم النظرية التي قدمتها الدكتورة مريم والدكتور شعبان أن النسخة المولّدة بهذه الطريقة ستحتفظ بذاكرة وراثية يمكن من خلالها الاستدلال على جميع الآثار المصرية القديمة واكتشاف كل الأسرار المرتبطة بحياة المصريين القدامى.

طلب رئيس اللجنة من الباحثَين مغادرة القاعة ليتم النقاش بين أعضائها حول الموافقة على إجراء البحث من عدمه.

وبعد مغادرتهما، ساد صمت مطبق على المكان، قطعه رئيس اللجنة قائلاً:

– ما رأيكم أيها السادة؟

ردّ أول الأعضاء:

– فكرة رائعة.. ومخيفة في نفس الوقت..

وعلّق ثاني الأعضاء قائلاً:

– على الرغم من كون الفكرة رائدة في مجالها، إلا أن قبولنا بها يجعلنا في موضع تحدٍّ، وقد نصبح مثاراً للسخرية إن أثبتت فشلها.

ثم تكلم ثالث الأعضاء قائلاً:

– لم يكن عليهما الخوض في هذه الفكرة لهذا الحدّ، ولو أنهما قدّما بحثاً بسيطاً.. لا أدري.. لكني مشفق عليهما..

عاد رئيس اللجنة للحديث:

– المشكلة الأكبر أن هذه الفكرة تتطلب موافقة السلطات العليا في مصر، وهذه معضلة أخرى..

والتفت رئيس اللجنة نحو الآثاري الأمريكي الذي كان يجلس صامتاً، وقد جحظت عيناه من مكانهما وهو يسمع لحوار هؤلاء الأساتذة وعدم تقديرهم للفكرة التي بدت له فكرة هائلة، فقال له:

– دكتور جورج، لقد استُدعيت لهذه اللجنة لتبين رأيك حول الجزء المتعلق بالآثار، وفيما لو كان ممكناً إجراؤه على المومياوات المصرية بحكم خبرتك في هذا المجال، لكنّنا في الحقيقة نجد صعوبات فنية وإدارية كثيرة يصعب معها قبول هذا البحث، فما رأيك؟

وقف الدكتور جورج على قدميه متكئاً على عصاه الغريبة قائلاً:

– أيها السادة.. أنا لا أرغب في التدخل في اختصاصكم، لكنني أقول إن الفائدة المرجوة من بعض البحوث الرائدة تجعلنا نقدم تساهلاً كبيراً في سبيل تنفيذها، ونتجاوز العديد من العقبات البيروقراطية التي قد تحرمنا من هذه الفوائد بشكل نهائي.. أنا أرى أن تبذلوا ما تستطيعون لإنجاح هذا البحث، أو أن توافقوا على الأقل على الفكرة وتتركوا للباحثين تدبر أمر تنفيذها..

قاطع رئيس اللجنة حديث الأمريكي قائلاً:

– لا تجري الأمور عندنا كما هي عندكم سيد جورج..

عند هذه اللحظة ابتسم الآثاري الأمريكي ابتسامة تهكّم، واستأذن بالانصراف، وفي سيره نحو الباب، ناداه رئيس اللجنة قائلاً:

– ألن تصوّت معنا سيد جورج؟

فاستمر في سيره وقال وهو يغلق الباب وراءه:

– لقد اتخذتم القرار مسبقاً..

وخرج يبحث عن الدكتورة مريم وزميلها الدكتور شعبان، حتى عثر عليهما وهما يجلسان لتناول الشاي في استراحة المعهد، فاقترب منهما، حتى لفت انتباههما، فابتسم وأحنى رأسه وقال في هدوء:

– هل تأذنان لي بالجلوس معكما؟

أجابت الدكتورة مريم بابتسامة جميلة ارتسمت على محياها القمحي الجميل:

– على الرحب والسعة.. تفضل دكتور..

كانت عينا الدكتورة مريم تلمعان سعادة، ورغبة في سماع خبر موافقة اللجنة على مشروع البحث، فبادرت بسؤاله بعد أن طلبت له قدحاً من الشاي:

– هل ستوافقون على مشروعنا يا دكتور؟

فابتسم الدكتور جورج وقال:

– سيفعل الزملاء في اللجنة ما يظنونه الأصوب..

ثم استمر بالحديث مغيّراً الموضوع:

– أنا كما تعلمان رجل آثار، وقد لفت نظري بحثكما بشكل كبير، ولكن هلّا تشرحان لي المزيد عن الذاكرة الوراثية؟

اعتدلت الدكتورة مريم في جلستها وبدأت تشرح:

– الذاكرة الوراثية يا دكتور هي فرضية علمية تتمثل في انتقال الذاكرة المكتسبة عبر الجينات الوراثية من جيل إلى جيل، فعلى سبيل المثال لو تصوّرنا تعرّض شخص ما لحادث سقوط من ارتفاع عالٍ، فإنه سينطبع في ذاكرته الجينية الخوف من الارتفاعات، ولنفترض أن هذا الشخص أنجب أطفالاً بعد ذلك،

فالمتوقع أن يرث الأطفال هذه الذاكرة المتعلقة بالخوف من الارتفاعات بنسبة النصف لأن جيناتهم ستكون مناصفة بين الأب والأم..

قاطعها الدكتور جورج وقال:

– نعم.. نعم.. حسب قوانين الوراثة المعروفة.. لكن ما الجديد في بحثكما؟

فقالت الدكتورة مريم:

– الجديد أننا تصوّرنا إمكانية ربط استنساخ البشر لاختبار الذاكرة الوراثية، لأنه في هذه الحالة سيكون لدينا إنسان بجينات تشبه بشكل تام جينات الشخص المستنسخ منه، لذا فإن الذاكرة الوراثية ستكون متطابقة بنسبة مئة بالمئة، أي أن الطفل المولود بهذه الطريقة سيحتفظ بنفس ذكريات الإنسان الذي استُنسخ منه تماماً..

فعاد الدكتور جورج لمقاطعتها قائلاً:

– نعم نعم فهمت.. لكن وفق أسس البحث العلمي، أليس الأولى أن تقوما بتجربة هذه الفكرة على شخص عادي قبل محاولة تجربتها على مومياء فرعونية؟

نظرت الدكتورة مريم نحو الدكتور شعبان تطلب منه المساعدة بإجابة الأسئلة، لكن الأخير كان غارقاً في تأمل وجه الدكتور جورج، فلم ينتبه لها، فاستطردت بالجواب:

– هذا المشروع يا دكتور يستغرق عمراً كاملاً ولا يحتمل التجربة والتصحيح، فنحن إذ نتحدث عن ذاكرة مترسخة في جينات الشخص المستنسَخ، لا نتوقع أن تكون الذكريات حاضرة مع الطفل منذ ولادته، وإنما ستُستحَثّ عند تقارب الأعمار..

لاحظت الدكتورة مريم استغراق الدكتور جورج في التأمل وهو ممسك بعصاه، ويمسح عليها بإبهامه الصغير، فخشيت أنه لم يفهم كلامها، فأردفت:

– بمعنى أننا لو استنسخنا نسخة منك يا دكتور، فإن الطفل المولود لن يتذكر جلستنا هذه حتى يكون في سنّك الآن، ولن يذكرها قبل ذلك رغم أنها مطبوعة في جيناته، لذلك نحن لن نتمكن من اختبار نجاح المشروع قبل بلوغ الطفل المولود السنّ المناسب للاختبار، بمعنى أن فترة الاختبار هي فترة حياة هذا الطفل كلها، هل فهمتني الآن؟

فعاد الدكتور جورج ليسأل:

– لكن كيف يمكنكما إجراء الاستنساخ من خلايا ميتة؟

فأجابت الدكتورة مريم بعد أن نظرت نحو الدكتور شعبان:

– يمكننا باستعمال تقنيات دقيقة أن نجري تجربة الاستنساخ من خلية ميتة منذ آلاف السنين، بل ويمكننا الحصول على خلايا متفرقة من أي أثر من آثار الإنسان، كقطعة من ثيابه، أو أي أداة كان يستعملها..

عادت الابتسامة الصفراء لترتسم على وجه الآثاري الأمريكي، وهو يهز رأسه موافقاً الدكتورة الذكية وزميلها الصامت الذي ما انفكّ يتأمل وجهه بدقة منذ أن جلس معهما.

نهض الدكتور جورج من مقعده، وقال وهو يهمّ بالانصراف:

– شكراً على هذا الشرح الجميل، سأكون في هذا الفندق في حال احتجتما لأي مساعدة في تنفيذ المشروع..

ومدّ يده ليخرج بطاقة الفندق الذي يسكن فيه حالياً، فتناولته الدكتورة مريم بسعادة وقالت:

– شكراً لك يا دكتور.. هل أفهم منك أن اللجنة ستوافق على المشروع؟..

نظر إليها وابتسم وقال:

– سيفعلون ما يظنونه الأصوب..

وانصرف مبتعداً وبعد بضع خطوات، رفع عصاه قرب فمه، وقال وكأنه يهمس لها: «وسأفعل أنا ما أظنه الأصوب»..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(٤)

بعد ٢٥ سنة:

أوشكت الطائرة القادمة من بغداد على الهبوط في مطار القاهرة، إذ لاح لراكبيها شريان النيل الأبدي بمساره المتعرج، وضفتيه الخضراوين الممتدتين على جانبيه، وهو يشقّ جسد الصحراء المقفرة، ويختزن في ذاكرته قصة أقدم حضارات البشر التي قامت على عروقه، وارتوت من مائه.

هكذا كانت طالبة التاريخ آسيا تراه عبر نافذة الطائرة، وهي منبهرة برحلتها الأولى خارج بغداد، رغم أنها ما تزال محتارة في قرار أبيها الغريب بالقيام بهذه الرحلة، والأغرب منه كلامه معها عندما كانا بانتظار الطائرة في مطار بغداد، حيث قال لها وهو مطرق بنظره نحو الأرض:

– اسمعيني يا أميرة.. عندما نصل إلى مصر، لا تتحدثي مع أي شخص غريب قبل أن أراه أنا أولاً..

حاول أن يتحاشى نظرات استغرابها، لكنه لم يجد بداً من محاولة تبرير كلامه هذا ولو بعذر سخيف، فأردف قائلاً:

– يتعرّض السياح في أي بلد لمضايقات من بعض المتربّصين..

كانت آسيا تدرك أن محاولات معرفة السبب الحقيقي لهذا الكلام ستبوء بالفشل، فلم ترد أن تفسد على نفسها هذه اللحظات الجميلة التي تعيشها وهي على وشك السفر لأول مرة في حياتها، فآثرت أن تختزل الجواب قائلة:

– لا بأس يا أبي.. سأفعل ما تريد..

وعندما حطّت الطائرة على أرض المطار، كان التوتر قد بدأ يتسلل إلى قلب الدكتور شعبان رويداً رويداً، كما يتسلل الماء في كوم القشّ، فها هو ذا يعود للقاهرة، التي غادرها منذ خمس وعشرين سنة، ليبدأ شريط الذكريات بالدوران في ذهنه، فتذكّر يوم اتصلت به زميلته الدكتورة مريم عبد السلام ذات يوم، تلك الطبيبة المجتهدة التي تعرّف عليها في دفعة الدكتوراه في معهد الهندسة الوراثية في القاهرة ، وقد ظهر تفوقها على جميع زملائها بما فيهم الدكتور شعبان، وكم تمنى لو يتاح له الجلوس معها والحديث إليها يوماً، لكنّ حياءه الشديد من جهة، وجدّيتها الشديدة وانصرافها للعلم من جهة أخرى، شكّلا جداراً ذا طبقتين منع منعاً باتاً تحقيق هذه الأمنية.

كانت ظروف حياة الدكتورة مريم تشبه إلى حدّ كبير ظروفه الاجتماعية، ففي الوقت الذي نشأ فيه الدكتور شعبان في مدرسة أيتام، وعاش عمره مفتقداً لكنف الأسرة، فإن الدكتورة مريم هي الأخرى قد فقدت أبويها في حادث سير منذ أن كانت صبية صغيرة، ولعلّ تحدّيها لظروف الفقر والعوز، وقدرتها على مواجهتها زاد من انجذاب الدكتور شعبان نحوها.

عندما ردّ على الهاتف كانت مريم تطلب منه مشاركتها في المشروع الذي تنوي القيام به، فوافق على الفور طمعاً في صحبتها باديء الأمر، إلا أن معرفته بتفاصيل مشروعها البحثي أثار في نفسه فضولاً علمياً تغلّب كثيراً على رغباته الأخرى.

بقيت الذكريات تدور في ذهنه حتى عندما خرج بصحبة آسيا من بناية المطار، ليركبا سيارة الأجرة قاصدين الفندق. وعندما استقر بهما الحال أخيراً في الجناح الذي كان قد حجزه الدكتور شعبان مسبقاً عبر الانترنت، قفزت

آسيا مسرعة نحو شرفة غرفتها فلاح لها منظر الأهرامات وقد زادتها الأضواء الموجهة تجاهها مهابة وعظمة.

أما الدكتور شعبان فقد نظر نحو الأفق وقد احتشدت في عقله جموع الذكريات، فكأنها جيش عرمرم يقف أمامه مثل قائد عظيم ينتظر جنودُه أوامرَه، فقال في سرّه، وعيناه مغرورقتان بالدموع: «ها قد حان وقت اختبار مشروعك، يا مريم!».

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل الثاني

(٥)

قبل ٢٥ سنة:

ترتبط حياة الكثير من الناس ارتباطاً وثيقاً بفكرةٍ لا يتصوّرون حياتهم من دونها، فيبنون على أساسها قصراً من خيال ويسكنون فيه، حتى إذا ما فشلوا في الوصول لفكرتهم وتحقيق طموحاتهم، انهار عليهم سقف ذلك القصر الشاهق، فوجدوا أنفسهم بلا مأوى.

هكذا كان اليأس والإحباط يحيطان بالدكتورة مريم والدكتور شعبان عندما بلغهما خبر رفض لجنة دراسة مقترحات البحوث للعنوان الذي تقدما به، حتى إن أحداً منهما لم يقو على النهوض من على درجات سلّم معهد الهندسة الوراثية على الرغم من انتهاء الدوام الرسمي قبل ساعة. لقد آمنا بمشروعهما إلى الحدّ الذي لم يضعا في حسبانهما إمكانية رفضه، مما زاد وقع الصدمة عليهما.

وقفت الدكتورة مريم غاضبة وقالت:

– لنذهب للدكتور جورج ستيفن.. لقد أخبرنا بأنه سيساعدنا على إنجاز البحث..

نظر الدكتور شعبان نحوها بشيء من اليأس والشفقة:

– لا.. لن نفعل ذلك يا مريم.. هذا الرجل لن يساعدنا في شيء.. لعله هو الذي رفض المشروع وتظاهر بأنه في صفّنا..

لكنّ الدكتورة مريم أصرّت وقالت:

– لن نخسر شيئاً.. دعنا نجرّب ذلك..

سكت الدكتور شعبان أمام إصرارها، فعدّت سكوته موافقة منه، وانطلقت مسرعة تحمل حقيبتها، وهي تقول:

– لنذهب الآن فوراً نحو الفندق حيث يقيم الدكتور جورج..

لم يكن أمام الدكتور شعبان أي فرصة لثنيها عن إرادتها، ولا لتركها تذهب لوحدها لمقابلة هذا الرجل الأمريكي الغريب، والذي يشعر الناظر إليه بالريبة والقلق، فقام من فوره ليرافقها على مضض.

وفي بهو الاستقبال، في ذلك الفندق الفخم، اتصل مسؤول الاستعلامات بالدكتور جورج في غرفته ليخبره باسمي الزائرَين، فطلب منه إكرام ضيفيه ريثما يتهيّأ لاستقبالهما في غضون عشر دقائق، ولم تكد الدقائق العشر تمضي حتى ظهر الدكتور جورج بثيابه الأنيقة وحذائه اللامع وعصاه السوداء، فابتسم تجاه ضيفيه ورحّب بهما وطلب على الفور أن يتبعاه لغرفة جانبية في الطابق الأرضي من الفندق الفخم، كان قد طلب تخصيصها له منذ دقائق فقط، فجلس الثلاثة مجتمعين لمناقشة أمر البحث.

بدأت الدكتورة مريم في الحديث وقد بدا على وجهها الحزن والاضطراب إثر رفض مشروعها من قبل اللجنة، فقالت بغضب وشفتاها ترتجفان:

– لعلّك قد علمت يا دكتور بقرار اللجنة؟

اكتفى الدكتور جورج بهزّ رأسه موافقاً، وعادت الدكتورة مريم للحديث بنوع من العتاب:

– كنا نظنّ من حديثك معنا آخر مرة أنّ اللجنة ستوافق، خصوصاً وقد أبديت استعدادك لمساعدتنا في تنفيذ المشروع..

تريّث الدكتور جورج لحظات، وكأنه يلملم أفكاره، ثم قال:

– أنا أعتذر منكما إن كنت قد جعلتكما تأملان في موافقة اللجنة، لكنني ما أزال على وعدي بمساعدتكما في إنجاز المشروع..

قاطعه الدكتور شعبان فوراً قائلاً:

– كيف يمكنك مساعدتنا إن لم توافق اللجنة؟

فقال الدكتور جورج بهدوء:

– أقدّم لكما ما تحتاجانه لتنفيذ المشروع..

نظر الدكتور شعبان نحو زميله بيأس، ثم عاد ليقول لهذا الأمريكي البارد الأعصاب:

– أيها السيد.. إن المشروع يتطلّب أكثر من مجرد المال.. نحن نتحدث هنا عن موافقات رسمية مطلوبة لإجراء البحث على مومياء فرعونية، ونتحدّث عن مختبر متطور، وأجهزة حديثة.. و..

نظر الدكتور جورج نحو الدكتور شعبان بعينين نصف مغمضتين وقال:

– وأنا على استعداد لتوفير كل ذلك.. باستثناء الموافقات الرسمية طبعاً..

بدأ الغضب يثور في قلب الدكتور شعبان وهو يستمع لهذا الرجل الذي يتكلم ببرود غريب، فقال بصوت مرتفع قليلاً:

– وكيف يمكننا العمل من دون الموافقات الرسمية؟ ومن أين نحصل على المومياء المطلوب استنساخها؟ وفي أي مختبر يمكننا العمل؟

وقف الدكتور جورج ستيفن على قدميه وأخذ يخطو من حولهما، ثم قال:

– لقد آمنت بفكرتكما إيماناً مطلقاً حتى أنني مستعد لتوفير كل ما تحتاجانه.. ستعملان في مختبر متطور فيه كل الأجهزة التي تطلبانها، وسأحضر لكما مومياء

فرعونية كما طلبتما.. ولن نكون بحاجة للموافقات الرسمية، لأننا لن ننجز العمل في مصر..

شعرت الدكتورة مريم بسعادة مشوّشة، ففي الوقت الذي بدأ بصيص من الأمل يشقّ طريقه إليها وسط ظلام الإحباط الذي أحاط بها منذ سماع قرار اللجنة، إلا أنها لم تكن متأكدة من باقي التفاصيل التي يتكلم عنها الدكتور جورج، ومع ذلك فهي لن تترك مثل هذه الفرصة تطير من بين يديها.

أمّا الدكتور شعبان فكان متوجسّاً جداً، وازداد قلقه تجاه هذا الأمريكي غريب الأطوار، فكيف لرجل بمثل مكانته وقيمته بين أوساط الباحثين أن يقدّم كل هذه التسهيلات بما تحمله من مخاطر لمشروع بحث ليس من صميم اختصاصه، فبادر متسائلاً:

– لكن مهلاً يا دكتور جورج، هل يمكن أن تبيّن لنا ما المقابل المطلوب من تقديمك كل هذه التسهيلات؟

رمقت الدكتورة مريم زميلها بنظرة عتب، فهي لا تهتم كثيراً لمطالب الرجل قدر اهتمامها بتنفيذ هذا المشروع، إلا أن الدكتور جورج قال بهدوء:

– شكراً لسؤالك.. أنا لن يكون لي سوى طلب واحد، أن تنجزا لي نفس التجربة، بمعنى أساعدكما على تجربة استنساخ مومياء فرعونية، وتساعداني في تجربة استنساخ أخرى.

بادرت الدكتورة مريم بالقول:

– هذا طلب معقول يا دكتور..

فقاطعها الدكتور شعبان قائلاً:

– لا ليس طلباً معقولاً.. علينا أولاً أن نعرف الغرض منه.. ولأي سبب تريد إجراء هذه التجربة.. فالاستنساخ البشري لا ينبغي أن يكون عشوائياً.. ولا بد من أن يكون مقيّداً بقيود علمية صارمة..

فقال الدكتور جورج مبتسماً:

– بالتأكيد.. أنا أوافقك الرأي يا دكتور.. لكنني في هذه المرحلة لن أخبركما بشيء.. سيكون عليكما الموافقة على الاتفاق، ثم سأخبركما بكل شيء عندما يحين وقت تنفيذ تجربة الاستنساخ لمصلحتي..

بقي الدكتور شعبان صامتاً لا يعرف ما يقول، إلا أن الدكتور جورج عاد ليقول:

– ليس هذا كل شيء.. فأنتما تعلمان كم يتطلب هذا المشروع من المال، وأنا كما تعلمان باحث آثاري، ثروتي الوحيدة في رأسي وفي أوراقي، لذا فإن وسيطاً ثالثاً سيدخل معنا في هذه الصفقة، وسيقوم بتمويل المشروع بأكمله مقابل شيء وحيد، أن يتاح له التصرف في فوائد المشروع المادية..

لم يتمالك الدكتور شعبان نفسه عند سماع هذا الكلام، فقال بغضب:

– أية فوائد مادية؟ مشروعنا مشروع علمي فقط، وليس فيه فائدة مادية.. ما الذي تتكلم عنه؟

عاد الدكتور جورج للحديث:

– اهدأ يا دكتور.. نحن لم نتفق على شيء بعد.. الذي أقصده أن النسخة الفرعونية التي ستختبران ذاكرتها الوراثية، قد تتمكن من التعرف على الآثار والكنوز المصرية القديمة، وهذه المعرفة لوحدها تعدّ ثروة مادية هائلة.. الطرف الثالث الذي سيؤمّن لنا المال اللازم لهذا المشروع هو رجل أعمال لا يعنيه العلم الذي يعنينا أنا وأنت، لذا فهو مهتم بتحقيق ربح مادي فحسب..

فقال الدكتور شعبان وقد هدأت سَوْرة غضبه:

– وضّح لنا أكثر.. ما الذي يطلبه رجل الأعمال ذاك؟

فقال الدكتور جورج فوراً:

– الطفل الذي سيولد من الاستنساخ.. سيكون ملكاً لرجل الأعمال.. ليس لكما سوى متابعة تجربة الذاكرة الوراثية.. أما ما يتولّد عن تلك الذاكرة من معرفة فستكون ملكاً لصاحب المال.. أليس هذا منصفاً؟

نظر الدكتور شعبان نحو زميلته بارتباك وقلق، وبادلته هي ذات النظرات، فهما لم يفكرا بالطفل المستنسخ، ولا بالعوائد المادية المتولّدة عن ذاكرته، وقد وقفا اليوم أمام هذا الرجل وهما لا يعرفان شيئاً من أساليب المماطلة والتفاوض، كل الذي يعرفانه في هذه الحياة هو ما يتعلّق بمجال تخصصهما فحسب. لكنهما وجدا نفسيهما أمام قوتين تجذبانهما باتجاهين مختلفين؛ فمستقبلهما العلمي مرتبط بتنفيذ مشروعهما بأي ثمن، لكنّ الثمن الذي يتكلم عنه الدكتور جورج سيكون مجهولاً لهما تماماً.

عندما أدرك الدكتور جورج أن الطبيبين لن يتمكنا من اتخاذ رأي قاطع في هذه الجلسة، رفع عصاه واتجه نحو مخرج القاعة ليغادرها قائلاً:

– فكّرا جيداً بما قلته لكما ثمّ أبلغاني بجوابكما خلال يومين فأنا سأغادر في حالة رفضكما نحو الولايات المتحدة..

وقبل أن يخرج سأله الدكتور شعبان سؤالاً أخيراً:

– من هو رجل الأعمال الذي سيتبنى المشروع.

فابتسم الدكتور جورج قبل أن يجيب وهو يغادر الغرفة:

– رجل أعمال ألماني اسمه السيد هاملر..

(٦)

بعد ٢٥ سنة:

أمضى الدكتور شعبان مساء يومه الأول في القاهرة مستريحاً من عناء السفر في الفندق الفخم، أمّا آسيا فقد أخذت السعادة منها كل مأخذ وهي تجرّب للمرة الأولى السكن في فندق، وزاد من حماسها معرفتها بأنها على بعد خطوات من الأهرامات الفرعونية، التي تمثّل لكل مهتم بالتاريخ كنزاً ثميناً، كما أنّ وصولها إلى مصر حيث ستلتقي بهشام الشرقاوي يعني لها شيئاً خاصاً أخذ يدغدغ مشاعرها مؤخراً.

حملت هاتفها وقامت فوراً بمراسلة الأستاذ هشام عبر الماسنجر لتخبره بوصولها:

– السلام عليكم أستاذ هشام..

– عليكم السلام أهلاً آسيا.. متى تصلين إلى مصر؟

– أنا في القاهرة فعلاً..

– حقاً؟ رائع.. وأين أنت الآن؟

– في الفندق المطلّ على هضبة الأهرامات..

– أعرفه.. أعرفه..

– اسمعني.. أنا لم يقل لي أبي لغاية الآن كم سنبقى في مصر، لكني سأفهم منه قريباً، فإن كانت المدة طويلة بما يكفي فإنني سأجعل بحثي عن الحضارة الفرعونية كما اقترحت علي..

– رائع جداً.. وسأكون مرشدك بين الآثار إن شاء الله.. قولي لي كيف وجدت القاهرة؟

– جميلة جداً.. لا أعرف ما الذي انتابني.. فعلى الرغم من أني لم أسافر من قبل خارج بلدي، إلا أنني أشعر بالانتماء لشيء ما هنا، شعور غريب..

– ممتاز.. تمهّلي حتى أريك كل الأماكن الجميلة هنا.. لكن متى يمكنني لقاؤك؟

– أبي اليوم تعب من السفر، سأخبره في العشاء عنك وعن فكرة البحث، ثم نلتقي إن شاء الله..

– ممتاز.. أنتظر منك الجواب إذن..

عندما حان وقت العشاء نزل الدكتور شعبان وآسيا لمطعم الفندق، حيث تقدّم الوجبات المصرية التقليدية، التي اشتاق إليها الدكتور شعبان كثيراً، فتناول طعامه بشهية، بينما كانت آسيا تتحيّن الفرصة المناسبة لتقول لأبيها:

– أبي.. كم سنمكث في مصر؟

أجاب الدكتور شعبان والابتسامة تملأ وجهه:

– لا أعلم يا أميرة، عليك أنت أن تحددي لنا فترة المكوث..

فبادرت بالقول:

– في الحقيقة فكرت في أن أجعل بحثي في الماجستير عن الحضارة الفرعونية، فما هو رأيك؟

ترك الدكتور شعبان الطعام للحظة وانتبه لكلام ابنته بشيء من الاهتمام ثم ابتسم بفرح وقال:

– يا سلام.. ممتاز.. اختيار رائع.. هل لي أن أعرف لماذا اخترت هذا الموضوع بالذات؟

هنا تورّدت وجنتاها بخجل وقالت:

– في الحقيقة، هناك أستاذ أشار لي بهذا الموضوع، ولكني كنت مترددة، لأنني لا أحبّ القيام ببحث تاريخي دون أن أشاهد موقعه وآثاره عياناً، وها أنا ذي هنا في مصر، فإن كان مكوثنا يطول فسأبحث في هذا المجال.. و.. ربما.. سيساعدني أستاذ هشام في ذلك..

انتبه الدكتور شعبان عندما سمع الفقرة الأخيرة من كلامها، وقال:

– من هو أستاذ هشام؟ وكيف عرفك؟

فأجابت بخجل:

– هو أستاذ في التاريخ، وهو مصري، وقد عرفته عن طريق المراسلة..

فانتبه أكثر، وقال:

– أخبريه أن يحضر غداً صباحاً.. أريد التعرف إليه..

فوجئت آسيا بطلب أبيها، لم تكن تتوقع ذلك، لكنها أحسّت بسعادة داخلية لهذه الخطوة، فوافقت قائلة:

– سأرسل له رسالة ليحضر غداً للفندق فتتعرف عليه..

في اليوم التالي، وعند الساعة التاسعة صباحاً كان الأستاذ هشام يقف عند استعلامات الفندق، تماماً كما حددت له آسيا الموعد، وعندما سأل موظف الاستقبال عن الدكتور شعبان، أخبره أن الدكتور ينتظره في المطعم لتناول الإفطار.

كان يشعر بشيء من التوتر وهو يدخل مطعم الفندق، بسبب الصورة التي تكوّنت لديه مسبقاً عن الدكتور شعبان، إلا أنّ مصدر قلقه الأكبر كان بسبب

آسيا، هذه الفتاة التي جذبته بحديثها وأسلوبها وعفويتها، فكيف ستكون صورتها؟ وكيف ستراه هي؟

لم يكن عدد الجالسين في المطعم كثيراً، ولم يكن فيهم سوى رجل واحد كبير في السن، فخمّن هشام أن يكون هو الدكتور شعبان، لكن أين آسيا؟

تقدّم نحو الرجل سائلاً:

– السلام عليكم.. عذراً على الإزعاج.. هل أنت الدكتور شعبان؟

توقف الدكتور شعبان عن تناول الطعام ونظر باستغراب نحو الشاب وقال:

– نعم.. من أنت؟

قال الأستاذ هشام:

– أنا هشام الشرقاوي، سعيد بمقابلتك دكتور..

فتح الدكتور شعبان عينيه بشيء من المفاجأة والسعادة، وانفرجت أساريره حين رآه شاباً، وقال:

– حقّاً؟ أنت الأستاذ هشام؟ أستاذ التاريخ.. أهلاً وسهلاً بك يا ولدي.. كنت أظنك أكبر في السنّ.. تفضل بالجلوس..

فوجيء الأستاذ هشام بترحيب الدكتور شعبان، فقد كان خلاف الصورة التي كوّنها عنه، وبعد بضع دقائق من الحديث الودي بينهما، زالت مشاعر الخوف لدى الدكتور شعبان واطمأن للشاب لما لمسه من عفويته ووضوحه، فرفع هاتفه واتصل بابنته التي كان قد أمرها بالمكوث في الغرفة حتى يقابل هذا الشاب، فطلب منها الحضور للقاء الأستاذ هشام الشرقاوي.

كانت عينا هشام تتراقصان بين باب المطعم، وعيني الدكتور شعبان، وما هي إلا دقائق حتى رآها تدخل سائرة بخطوات وئيدة مثل مشية الملكات، فعرف لماذا كان أبوها يسمّيها «الأميرة»، وعندما جالت بنظرها فأبصرته من بعيد وهو يجلس مع أبيها، أحمرّت وجنتاها خجلاً فازدادت جمالاً وبهاءً، وارتسمت ابتسامة رقيقة على ثغرها، فلم يعد هشام يلتفت نحو محدّثه، واكتفى بتأمّل هذا الحسن والبهاء.

ألقت آسيا التحية وجلست، مطرقة نظرها نحو الطاولة التي سارع عاملو المطعم بملئها بأطعمة الفطور، وشعر الدكتور شعبان بخجل ابنته والأستاذ هشام من رؤية بعضهما البعض، فابتسم في داخله مطمئناً، ثم تناول الثلاثة طعامهم، بينما تبادل هشام وآسيا نظرات خجولة في صمت، قطعه الدكتور شعبان قائلاً:

– نحن نريد أن نعرض عليك وظيفة مؤقتة يا أستاذ هشام..

انتبه هشام من ذهوله وقال:

– أنا بأمركم دكتور..

فقال الدكتور شعبان:

– تريد الأميرة أن تعمل على بحث تاريخي يختص بالتاريخ الفرعوني القديم، ونريد منك أن تكون دليلنا في الجولات الآثارية، فما هي خبرتك في هذا المجال؟

شعر هشام باطمئنان كبير، فقد أحس أن القوم ولجوا ملعبه الذي يحسن اللعب فيه أيّما إحسان، فقال بثقة:

– أنا يا دكتور، بفضل الله، ذو خبرة كبيرة في هذا المجال، وعندي الكثير من الأبحاث حول الآثار الفرعونية، وسأريكما كل ما تريدان رؤيته، بل وأكثر من ذلك..

فقال الدكتور شعبان وهو يمسح يديه بمنديل:

– هذا رائع، وسيكون لك راتب مجزٍ طيلة الفترة التي سنمكثها هنا..

فردّ هشام بإصرار:

– أبداً يا دكتور.. لن أرضى بأي راتب، سيكون لي الشرف بصحبتكما..

تبسّم الدكتور شعبان وقال وهو ينهض معلناً نهاية اللقاء:

– لا بأس.. لا بأس.. نحن سنبدأ جولاتنا اليوم عصراً، فإن سمح وقتك فالحق بنا..

فقال هشام وهو ينهض أيضاً:

– نعم بالتأكيد.. لكن من أين ستبدآن رحلتكما؟

فقال الدكتور شعبان وهو ينظر نحو النافذة وكأنّه يتذكّر شيئاً:

– لأنّ الملكات لهنّ الصدارة، سنبدأ من أهرام الملكات..

***

الفصل الثالث

(٧)

قبل ٢٥ سنة:

لم يكن الحصول على مومياء فرعونية ملكية، أو حتى على قطعة صغيرة منها بالأمر اليسير، كما ظنّ الدكتور جورج أول الأمر، فبعد أن أبدى الدكتور شعبان والدكتورة مريم موافقتهما على مقترح الدكتور جورج كان عليه استخراج أوراقه القديمة التي كان قد ذكر فيها الأماكن المحتملة لوجود مومياوات في مصر عندما كان عضواً في فريق بحثي آثاري منذ عقد مضى من الزمان.

وبينما كان يراجع أوراقه تلك لفتت انتباهه ورقة بحثية كان قد ذكر فيها على ملأ من الباحثين أنه يعتقد بوجود مومياء ملكية في كل هرم من الأهرامات الصغيرة الثلاثة الموجودة على الحد الشرقي للهرم الأكبر، وبينما هو يقرأ البحث مجدّداً تذكّر كيف واجه في حينها معارضة شديدة من زملائه، ولم يكن في حينها أكبرهم سنّاً، ولا أعظمهم مكانة، فأهملت ورقته البحثية الفذّة في نظره على الأقل، والتفت هو أيضاً إلى غيرها.

استخرج ورقته تلك، وقال وكأنه يتحدّث إليها: «حان وقتك الآن يا صغيرتي»، وانطلق لإكمال باقي الإجراءات قبل أن يحين موعد لقائه الدوريّ كل أسبوع بالدكتورة مريم والدكتور شعبان، كما تم الاتفاق عليه.

وفي نهاية الأسبوع كان الثلاثة يجلسون معاً في غرفة هادئة معزولة في الفندق الذي يقيم فيه الدكتور جورج، الذي بادر بالقول:

– هل قمتما بإعداد قائمة الأجهزة والمواد المطلوبة للقيام بالجزء المتعلق بكما؟

فوضعت الدكتورة مريم مجموعة أوراق كتبت فيها كل الأجهزة والمواد اللازمة لإنشاء مختبر مصغّر للقيام بحفظ عينة من خلايا المومياء، وما تتطلبه التقنية اللازمة لتنشيطها، ومن ثم حثّها على الانقسام ليتكوّن جنين بشري، ثم يغرس في رحم امرأة لينشأ نشأة الجنين الطبيعي.

أخذ الدكتور جورج الأوراق وهو يردّد:

– ممتاز.. هذا رائع.. وأمّا أنا فأعمل على الحصول على المومياء الملكية المطلوبة بعد أن أجري بعض التحليلات اللازمة..

قاطعه الدكتور شعبان قائلاً:

– من أين ستحصل على المومياء؟ وكيف؟

فابتسم جورج ابتسامته الصفراء مجدداً وقال:

– لا تتعب نفسك يا دكتور في هذه التفاصيل، وركّز على الجزء المتعلق بك..

شعر الدكتور شعبان بنوع من الاستخفاف في نبرة صوت الدكتور جورج فقال بغضب:

– لا.. هذا مرفوض مطلقاً.. نحن فريق، وأنت لست في موضع يسمح لك بأن تطّلع على عملنا، من دون أن نطّلع بالمقابل على ما تقوم به.. ينبغي أن نعرف من أين ستحصل على المومياء وكيف.. لنعرف قدر الخطورة التي نحن مقبلون عليها..

نظر الدكتور جورج بحدّة نحو الدكتور شعبان لكنّه حافظ على هدوئه المصطنع وقال:

– نحن بالتأكيد فريق يا دكتور.. لكني لا أريد إشغال ذهنك بعملنا المملّ، وسأشرح لك بعد أن ننتهي...

قاطعه الدكتور شعبان بغضب أشدّ هذه المرّة قائلاً:

– اسمع يا دكتور.. لا تتحدّث معي كالأطفال.. إن كنا سنستمر في هذا المشروع فسيُطلع أحدنا الآخر على كل صغيرة وكبيرة، وبخلاف ذلك فلن يكون...

وهنا هدر صوت خشن بقوّة قائلاً: «بل سيكون»..

نظر الجميع نحو مصدر الصوت وإذا هو رجل ضخم البنية، أزرق العينين، ذو شعر أشقر خفيف يكاد الصلع يأتي على بقاياه. كان هذا الغريب قد دخل غرفة اجتماعهم من دون أن يشعروا به، فجفل الجميع لصوته الخشن، حتى أن الدكتورة مريم شهقت بصوت مسموع، فقال الدكتور شعبان:

– من أنت؟

أجاب الدكتور جورج وهو ينهض من مقعده:

– أقدّم لكم السيد هاملر..

أخذ السيد هاملر كرسياً إضافياً وجلس معهم ليقول مباشرة:

– اسمعوا أيها السادة.. لقد أخبرني صديقي جورج بالمشروع، ووافقت على تمويله، وأنا أعلم مزاجيتكم أنتم معشر العلماء والباحثين..

وضحك بقهقهة بليدة تثير الاشمئزاز.. ثم عاد ليقول:

– لكنّ مزاجيتكم شيء، وضياع أموالي بلا فائدة شيء آخر.. فأنا كما تعلمون جميعاً رجل أعمال، ورجل الأعمال لا يُلقي ماله في المشاريع العلمية إلا إن كان في ظنه أنه سيعود عليه بمقابل ثمين..

قال الدكتور جورج بهدوء:

– اطمئن يا سيد هاملر.. سيعود عليك هذا المشروع بما يرضيك..

كان الدكتور شعبان والدكتورة مريم يتبادلان نظرات الريبة والقلق، لكنّ حلم إنجاز المشروع تجاوز في أذهانهما كل الحدود..

عاد السيد هاملر ليقول مخاطباً الدكتور جورج:

– لقد استمعت لحواركم، وأنا أتفق مع الدكتور شعبان، فكل خطوة تخطوها يا جورج سيرافقك فيها الدكتور شعبان والدكتورة مريم، والعكس بالعكس..

قاطعه الدكتور جورج بهدوء مصطنع هذه المرة:

– لكن يا سيد هاملر..

فبادر السيد هاملر قائلاً:

– بلى يا عزيزي جورج.. هذا ما سيكون.. ولا أقبل بشيء سواه..

والتفت نحو الدكتور شعبان ليرمقه بنظرة حادة قائلاً:

– كما أنني لن أقبل أن يهدد أحد منكم بالانسحاب من العمل مستقبلاً.. فانسحاب أي واحد منكم يعني ضياع مالي.. وأنا لا أرضى بضياع مالي بلا مقابل..

ساد صمت قلق لفترة وجيزة قطعه السيد هاملر مخاطباً الدكتور جورج:

– عزيزي جورج.. لقد أصبح الجهاز الذي طلبته جاهزاً، فمن أين ستبدأ باستعماله؟

ثم التفت نحو الدكتور شعبان وابتسم وهو يوجّه كلامه للدكتور جورج:

– بصحبة زميليك طبعاً..

نهض الدكتور جورج وقال:

– لأن الملكات لهن الصدارة، سنبدأ من أهرام الملكات..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(٨)

بعد ٢٥ سنة:

تشخص أبصار السياح الذين يصلون مجمع الأهرام في هضبة الجيزة غربي القاهرة نحو الأهرام الثلاثة الكبرى خوفو، وخفرع، ومنكورع، بحجمها الضخم، وهندستها الدقيقة، فكأنّها لوحة سماوية تحكي جبروت ذلك العصر وهيبته. ولا تجد سائحاً يترك المكان إلا وقد قضى ساعات يومه بأكملها أمام هذه الجبال الحجرية المصنوعة بأيدي البشر، لكنّ الدكتور شعبان وابنته آسيا، مع دليلهما الشاب الأستاذ هشام لم يقفوا لحظة واحدة أمام هذه الأبنية، بل توجهوا مباشرة بناءا على رغبة الدكتور شعبان نحو أهرام الملكات، وهي أهرام ثلاثة صغيرة الحجم إذا ما قورنت بهرم خوفو المجاور لها.

وحال وصولهم ثمّة، بدأ الأستاذ هشام يشرح بطريقة يتقنها تفاصيل المعالم الآثارية قائلاً:

– كان من عادة الفراعنة في الأسر القديمة أن يبنوا لنسائهم أهراماً صغيرة إلى الجنوب من هرم الفرعون، وهذا ما سنراه في أهرام الملكات المجاورة لأهرام بقية الملوك، أما الأهرام التي نقف أمامها اليوم، وهي أهرام نساء خوفو فهي تقع إلى الشرق من هرم خوفو وليس إلى الجنوب، من غير أن يُعرف السبب لغاية اليوم.. وقد قيل في تفسير ذلك أن المكان جنوب الهرم ربما لم يكن متاحاً في حينها..

بقي الدكتور شعبان منذ وصولهم لهذا الموقع يراقب ابنته آسيا، ويتأمّل وجهها بحذر، وهي تنظر بسعادة بالغة نحو هذه المعالم الأثرية التي طالما قرأت عنها، وحلمت بأن تراها، وتستمع لشرح الأستاذ هشام، الذي أكمل قائلاً:

– ونجد هنا ثلاثة أهرام، الهرم الأول من جهة الشمال، هو هرم الملكة حتب حرس أم الفرعون خوفو، والذي يليه هو هرم الملكة مريتيتيس زوجة خوفو، ثم الهرم الثالث وهو هرم الملكة حنوتسن زوجة خوفو أيضاً.. ولنذهب الآن في جولة لكل هرم، ولنبدأ بهرم الأم حتب حرس..

قال الدكتور شعبان معترضاً:

– مهلاً.. مهلاً.. لنذهب أولاً للهرم الأوسط.. هرم الملكة مريتيتيس..

نظرت آسيا نحو أبيها باستغراب وقالت:

– لماذا الهرم الأوسط يا أبي؟ لمَ لا نبدأ من الهرم الأول؟

سكت الدكتور شعبان للحظة، إذ لم يعرف كيف يبرر ذلك، لكنه عاد ليقول:

– أنا أفضّل ذلك.. هيا بنا..

ومضى أمامهما ليحثهما على الانطلاق نحو الهرم الأوسط، فسار الأستاذ هشام وآسيا خلفه، ولمّا بلغوا الهرم، أخذوا يدورون حوله من كل الجهات، والأستاذ هشام يشرح تفاصيل البناء وأسراره، وعلاقته بالهرم الأكبر، بينما بقي الدكتور شعبان يراقب ابنته، وينظر إلى وجهها كمن يترقب ردّة فعل غير معلومة، لكنّ آسيا كانت تتصرف بصورة طبيعية جداً وتنتقل بنظراتها بين الهرم الماثل أمامها، وبين الأستاذ هشام، فكانت في غاية السعادة والنشاط.

وعندما انتهت جولتهم حول الهرم الأوسط، وأفرغ الأستاذ هشام ما في جعبته من معلومات، نظرت آسيا بلهفة نحو أبيها وقالت:

– أبي.. هل نذهب الآن إلى الهرم الأول؟

كان اليأس والإحباط باديين على وجه الدكتور شعبان، الذي هزّ رأسه موافقاً على الذهاب نحو الهرم الأول، هرم حتب حورس، وبينما سار الثلاثة معاً، اقترب الدكتور شعبان من ابنته وسألها:

– هل تشعرين بشيء غير طبيعي يا أميرة؟

التفتت آسيا نحوه وقالت متعجبة:

– مثل ماذا يا أبي؟

فقال:

– أيّ شعور لم تعرفيه من قبل؟

فقالت بهدوء لتطمئنه:

– لا تقلق يا أبي.. أنا أشعر بالسعادة فقط..

لم تعرف أن جوابها هذا زاد في إحباطه ويأسه، وأخذ يتساءل في نفسه: «هل كانت الفكرة في أصلها وهماً؟ أم أنّ خطأً ما قد حصل؟»

وعندما بلغ الثلاثة هرم الملكة حتب حورس، الذي بدا معظمه مهدّماً، كان المكان مكتظاً بمجموعات من السياح، وأخذ الأستاذ هشام يشرح بنشاط، لكنه هذه المرة أصبح يوجّه كلامه لآسيا فقط، إذ بدا الدكتور شعبان مطرق الرأس وغير مهتم، فقال الأستاذ هشام:

– ها نحن أمام هرم الملكة التي..

وفجأة! قطع الأستاذ هشام شرحه، إذ تنبّه لآسيا وقد شخصت عيناها في ذهول، وبدت كأنّها تنظر نحو مدخل الهرم بنظرة خوف، فقال لها وهو يقترب منها:

– آسيا.. ما بك؟

التفت الدكتور شعبان بسرعة عندما سمع قول الأستاذ هشام، ونظر نحو ابنته، فرأى في عينيها نظرة لم يسبق له أن رآها، واقترب منها قائلاً:

– ما بك يا أميرة؟ تكلّمي..

غير أن آسيا كانت كأنها لا تعي شيئاً مما حولها، وبقيت شاخصة العينين لحظات، ثم أغمضت عينيها وقالت بصوت عالٍ:

– جميلة الوجه..

ثم ارتخت أطرافها وأوشكت أن تسقط لولا أن تلقّفها الأستاذ هشام، وأخذ الدكتور شعبان يحاول إيقاظها، إلا أنها كانت فاقدة الوعي تماماً، فحملها الرجلان وانطلقا نحو الفندق مسرعين.

كانت عيون السيّاح تراقب الحادث بشيء من الفضول، ثم تمنّوا للفتاة أن تكون بخير، وعادوا لجولتهم، إلا أنّ عينين جاحظتين من بين أعين السياح الكثيرة كانتا تراقبان بحذر وترصّد كل حركة حصلت أمام هرم الملكة حتب حرس، وبعد انصراف أبطالها الثلاثة ارتسمت تحت تلكما العينين ابتسامة صفراء باردة.

***

الفصل الرابع

(٩)

قبل ٢٥ سنة:

لم تكن الدكتورة مريم راغبة بسماع تحذيرات زميلها ونصائحه، فرغبتها الجامحة بتحقيق حلمها وإنجاز هذا البحث الفريد أصمّت أذنيها عن أي صوت آخر يمكن أن يعيقه ويمنع تحقيقه. رفضت كل ما يقوله لها الدكتور شعبان بشأن خطورة وضعهما، وأنهما قد أقحما نفسيهما في معترك قد لا يعرفان الخلاص منه، إلا أنّها أخبرته أخيراً بكل وضوح أنها مصرّة على المضي قدماً مهما كلّفها ذلك، وحتى لو تخلّى هو الآخر عن مساندتها، ولم يكن الدكتور شعبان ليتخلى عنها أبداً.

كان الدكتور جورج يحمل في يده اليسرى جهازاً ذا ذراع بطول نصف متر، جعلها تمتد تحت ذراع القميص الأسود الذي كان يرتديه في ذلك اليوم، وهو يدخل برفقة الدكتور شعبان والدكتورة مريم داخل الفجوة الصغيرة في الهرم الأوسط من الأهرام الثلاثة المخصّصة للملكات والتي وقفت شامخة عبر آلاف السنين في الجانب الشرقي من الهرم الأكبر. وسلكوا ممراً ضيقاً أدّى بهم في النهاية إلى غرفة صغيرة تشبه الغرف التي يوضع فيها التابوت الملكي، إلا أنها كانت خالية بالطبع.

وعندما بلغ الثلاثة آخر ما يمكن بلوغه داخل الهرم، استخرج الدكتور جورج جهازه من تحت القميص بعد أن اطمأن بعدم وجود شخص آخر معهم،

وبدأ بتشغيله ثم الدوران في الفسحة التي وصلوا إليها، وكأنه يلتقط صوراً من نوع خاص، واستغرق عمله خمس دقائق كانت كفيلة بنفاد صبر الدكتور شعبان والدكتورة مريم، فبادر الدكتور شعبان قائلاً بملل:

– ماذا تفعل بهذا الجهاز؟

أجاب الدكتور جورج وهو منهمك بعمله:

– هذا جهاز متطور يلتقط صوراً بالموجات فوق الصوتية لما يمكن أن يكون فجوة في الجدران..

فقالت الدكتورة مريم:

– ولماذا تبحث عن فجوات في الجدران؟

أكمل الدكتور جورج عمله وعاد إلى إخفاء الجهاز تحت ذراع قميصه وقال مجيباً:

– الذي توصّلت إليه في أبحاثي أن هذه الغرف التي يظنّ معظم الناس أنها غرف دفن الملكات، ليست سوى خدعة توهم لصوص المقابر بأن الغرفة فارغة لأنها سبق أن نهبت، فيتركونها، بينما يختبئ التابوت الحقيقي في سقف الغرفة وجدرانها العليا.

أخذ الدكتور شعبان والدكتورة مريم ينظران في سقف الغرفة التي يقفان فيها وفي جدرانها، فلم يجدا شيئاً يمكن أن يخفي تابوتاً، كل ما هنالك أحجار كبيرة صمّاء.

شق الدكتور جورج وزميلاه طريقهم للخروج سالكين ذات الممر الذي دخلوا منه، وبعد أقل من نصف ساعة كانوا جميعاً متحلّقين حول جهاز عرض

ارتبط به جهاز التصوير بالأمواج فوق الصوتية لمشاهدة نتائج التصوير، وأخذ الدكتور جورج يعرض الصور ويشرح لهما الفرق بينها، حتى توقف عند إحدى الصور، وأخذ يتأمّلها بدقة وقد جحظت عيناه، ثم قال بحماس:

– هنا.. نعم هنا.. إن كان ثمة مومياء ملكية فلن تكون إلا هنا..

أحسّ الجميع بنشوة عارمة وقالت الدكتورة مريم:

– وكيف هي حالتها؟ هل هي محفوظة بشكل جيد؟

بقي الدكتور جورج ينظر للصورة وأجاب:

– هذه ليست صور أشعة سينية يا دكتورة، نحن بالكاد يمكننا معرفة وجود فجوة في إحدى الأحجار في سقف الغرفة، وهذه الفجوة أقرب لأن تكون تابوتاً فحجمها وقياساتها تشابه التابوت الملكي، أما حالة المومياء فلا أعلم شيئاً حتى نخرجها..

فسأل الدكتور شعبان باستغراب:

– كيف يمكننا استخراج مثل هذه الصخور الضخمة ونحن نعمل بالخفاء ومن دون موافقة السلطات؟

عاد الدكتور جورج للاتكاء على كرسيه بهدوء وقال:

– سنستعين بمن يعرف كيف يخرجها..

بقي الدكتور شعبان والدكتورة مريم صامتين ينتظران مزيداً من التوضيح، فقال الدكتور جورج مردفاً:

– سأتصل بجماعة محلية مختصة بسرقة الآثار، كانوا يتصلون بي ليبيعوني بعض ما يحصلون عليه.. سيساعدوننا في استخراج هذه المومياء..

شخصت عيون الطبيبين وهما يسمعان هذا الكلام، ولم ينطقا بحرف واحد، وبعد هنيهة من الوقت سأل الدكتور شعبان:

– هل أنت متأكد أن هذه المومياء ملكية؟

ابتسم الدكتور جورج ابتسامته الصفراء الباهتة وقال:

– إن وجدنا هذه المومياء فلن تكون إلا للملكة العظيمة ميريتيتيس زوجة خوفو..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(١٠)

بعد ٢٥ سنة:

أخذت آسيا تستفيق شيئاً فشيئاً، وهي ممدّدة على سريرها في غرفتها في الفندق. وعندما فتحت عينيها الجميلتين، بدتا مثل لؤلؤتين توسّطتا وجهها الشاحب قليلاً، فأبصرت أباها وهو ينظر نحوها نظرة الحنان التي عرفتها في عينيه طيلة سني عمرها الماضية. أخذ الدكتور شعبان نفساً، وابتسم ابتسامة اطمئنان، وهو يقول:

– حمداً لله على سلامتك يا أميرة..

ردّت آسيا الابتسامة لأبيها وهي تقول مستغربة:

– ماذا حصل يا أبي؟ كيف وصلت هنا؟

فنظر أبوها نحوها باستغراب:

– ألا تذكرين شيئاً؟

بدأت آسيا تنهض من سريرها وهي تقول:

– آخر ما أتذكره أننا كنا على وشك الدخول لهرم الملكة حتب حورس..

سكت الدكتور شعبان وهو مقطّب الجبين ويفكر بعمق، ثم قال:

– هل تذكرت شيئاً ما؟ هل سمعت أو أبصرت شيئاً؟ أي شيء..؟

فهزت رأسها نفياً، ثم قالت فجأة:

– بلى.. رأيت رؤيا..

فاعتدل الدكتور شعبان فوراً وحثّها على الاستمرار قائلاً:

– ماذا رأيت؟ قصّي عليّ رؤياك فوراً..

فوضعت آسيا يدها على جبينها الأبيض النقي كأنها تريد تذكّر الرؤيا بدقة وقالت:

– لقد رأيت وأنا في الغيبوبة رؤيا غريبة.. رأيت كأن امرأة أنيقة وجميلة تنام مبتسمة على سرير ذهبي، وقد ارتدت قلادة مكونة من زهرات اللوتس البيضاء، وقد ارتدت ثوباً من كتان أبيض ناعم، مطرز بخيوط ذهبية، إلا في منطقة البطن فقد تلطخ الثوب ببقعة سوداء اللون كأنها عفن..

على قدر سعادة الدكتور شعبان بهذه الرؤيا التي تعني نجاح تجربة الذاكرة الوراثية بشكل أو بآخر، إلا أنه أدرك أنه غير قادر لوحده على فكّ رموز هذه الكلمات والرؤى، فكان عليه إيجاد حلّ لهذا. وبينما هو في صمته، بادرته آسيا قائلة:

– لكن.. من أحضرني إلى الفندق يا أبي؟

فانتبه الدكتور شعبان وقال:

– آه.. نسيت.. الأستاذ هشام.. إنه ينتظرنا في مطعم الفندق.. هو الذي أحضرك إلى هنا بنفسه.. هذا الشاب شهم وذو خلق.. إن كنت تشعرين بأنك بخير فلننهض للحاق به لتناول الغداء معاً..

تبسمت آسيا خجلاً، وهي تسمع كلام أبيها عن هذا الشاب الذي أثار إعجابها هي أيضاً، وأخذت تسأل نفسها وهي تستعد للنزول لمطعم الفندق: «ما سر السعادة التي أشعر بها في داخلي منذ أن عرفت الأستاذ هشام؟».

جلس الثلاثة ينتظرون طعام الغداء في مطعم الفندق، فسأل الأستاذ هشام:

– ما هو تشخيصك لما حصل لآسيا عند الهرم يا دكتور؟

أجاب الدكتور شعبان فوراً وكأنه قد هيأ الإجابة مسبقاً:

– ضربة شمس.. آسيا كانت تهلوس بكلام غير ذي معنى.. ثم حصل معها هبوط في الدورة الدموية.. الطقس حار.. وهذه الحالات متوقعة..

فسألت آسيا باستغراب:

– ما هو الكلام الذي قلته؟

فأجابها الأستاذ هشام وهو ينظر في وجهها الجميل:

– قلت كلمة واحدة: «جميلة الوجه»، هل تعني لك هذه الكلمة شيئاً؟

قاطعه الدكتور شعبان وقد وضع العاملون صحون الغداء، قائلاً:

– لنكمل طعامنا الآن.. اتركا الحديث.. سنقوم بجولات آثارية أخرى.. و..

وبلحظة واحدة، اكفهرّ وجه الدكتور شعبان، وشحب، كان ينظر نحو مدخل المطعم، حين لمح وجه الدكتور جورج، نعم إنه هو، لا يمكن أن يكون مخطئاً، إنه يعرفه جيداً رغم ما ملأ ذلك الوجه النحيل من تجاعيد السنين، لكن أي صدفة بائسة جاءت به هنا الآن؟

تنبّهت آسيا لحالة أبيها فسألته:

– هل من خطب يا أبي؟

لم يجب الدكتور شعبان بكلمة، لأنه لم يكن يسمع أصلاً، كانت حواسّه بأكملها مشغولة بالدكتور جورج الذي دخل المطعم، وعندما أبصر الدكتور شعبان تلك العصا السوداء بيده، تأكّد أنه هو لا محالة، فخالطه مزيج من الخوف والغضب، تذكّر كل ما تسبّب به هذا الرجل، أو كان شريكاً فيه على

الأقل، «ما الذي جاء به؟ هل هي صدفة فقط؟ لا أظن.. أبداً.. ليست صدفة.. هذا الرجل لا مجال للصدفة عنده..» هكذا كان يحدّث نفسه.

وما هي إلا دقيقة واحدة حتى اتخذ قراره، فنهض من كرسيّه وقال لآسيا وزميلها:

– أكملا غداءكما، لقد وجدت صديقاً قديماً، وسأذهب للجلوس معه..

اتجه الدكتور شعبان مباشرة حيث يجلس الدكتور جورج وسط استغراب ابنته وزميلها، وما إن وصل طاولة الدكتور جورج حتى أخذ كرسياً قبالته، وجلس غاضباً وقال:

– ماذا تفعل هنا يا دكتور جورج؟

رفع الدكتور جورج حاجبيه بتثاقل، من دون أن يظهر أي علامة من علامات الدهشة والمفاجأة، ثم نظر نحو الدكتور شعبان وقال وهو يبتسم:

– عزيزي الدكتور شعبان.. أنا سعيد لأنك بخير.. يبدو لي أن السنين الطويلة لم تعبث بك كثيراً..

قاطعه الدكتور شعبان وقال:

– دعك من أي شيء وأجبني.. ما الذي جاء بك هنا؟ وكيف عرفت أنني هنا؟

فسكت الدكتور جورج لحظة ثم قال وقد غابت ابتسامته هذه المرة:

– حسناً يا دكتور.. سأخبرك بكل شيء..

وفي هذه اللحظة أقبل عامل المطعم حاملاً فنجانين من الشاي، وضعهما قبالة كل واحد منهما، فنظر الدكتور شعبان باستغراب نحو الدكتور جورج، الذي عاد ليقول:

– لا تستغرب.. أنا من طلبت الفنجانين.. كنت سأدعوك لو لم تبادر أنت..

بقي الدكتور شعبان صامتاً، فأكمل الدكتور جورج قائلاً:

– أنا أعرف مقدار شغفك بمشروع الذاكرة الوراثية الذي بدأت به مع زميلتك.. وكنت أعلم أنك تختبيء في مكان ما وتنتظر الوقت الذي يمكنك فيه أن تستدل على مصداقية البحث وتختبره، وحالما سمعت نبأ وفاة السيد هاملر، قلت لنفسي إن كان الدكتور شعبان حياً فسيأتي لأرض الفراعنة مجدداً..

أحسّ الدكتور شعبان بالتوتر، فهذا الرجل يسبقه دائماً بخطوات، فقال له:

– وماذا تريد مني؟.. لماذا كنت تبحث عني؟

التفت الدكتور جورج يميناً ويساراً ثم قال بصوت خفيض وصارم:

– أريد أن نكمل بنود اتفاقنا.. هل تذكر؟

ردّ الدكتور شعبان بقوة:

– أي اتفاق؟ لم يبق بيننا اتفاق منذ أن ماتت الدكتورة مريم، أنت تعلم ذلك..

فعاد الدكتور جورج ليقول بصوت خفيض متوسلاً:

– أنا فعلت الجزء المتعلق بي، وبقي عليك أن تفعل الجزء المتعلق بك..

فقاطعه الدكتور شعبان قائلاً:

– اسمع يا هذا.. أنا لم يعد يهمني من ذاك الاتفاق شيء.. لا شيء بيننا فانصرف عني..

قام الدكتور شعبان وهو يكاد يتفجر غضباً، فسارع الدكتور جورج لاستيقافه وقال:

– مهلاً يا دكتور أرجوك.. أنا بوسعي مساعدتك في تفسير ما حصل لأميرتك هذا اليوم عند الهرم..

وقف الدكتور شعبان في مكانه مندهشاً، وعاد ليجلس قبالته مجدداً، ثم قال:

– هل كنت تراقبنا؟ ومن قال لك إنها الأميرة؟

فابتسم الدكتور جورج لأنه تمكن من جذب انتباهه وقال:

– لا يحتاج الأمر لمزيد فطنة.. كل شيء في هذه الشابة الحسناء يصدح بالملكية.. أنا رأيتكم صباح اليوم فقط، وراقبتكم بدقة، ورأيت ما حصل معها عند هرم الملكة حتب حورس..

فقال الدكتور شعبان فوراً:

– لم يحصل شيء.. اسمع يا هذا.. لقد ربيت هذه الفتاة خمساً وعشرين عاماً، جنّبتها فيها كل ما يمكن أن يؤذيها، فلم أختلط بالناس، ولم أتركها تغيب عن ناظري لحظة واحدة، فهي ابنتي حقيقة، وليست تجربة بحثية.. كما أنني طيلة هذه السنوات لم ألمح أي شيء يوحي بصدق فرضية الذاكرة الوراثية المزعومة، فعلى الرغم من أنني جعلتها تدرس التاريخ، وترى بعينيها كل الصور والنقوش والآثار الفرعونية، ولكنها لم تبد أية ردة فعل يمكن أن تكون مرتبطة بذاكرة فرعونية وراثية، فقلت في نفسي لعلها إذا رأت المكان عياناً سوف تشعر بشيء ما، فأخذتها إلى الهرم الأوسط، وكنت أراقبها بدقة ولكن لم تشعر بأي شيء.. فالآن يمكنني القول إن فرضية الذاكرة الوراثية باطلة عملياً..

كان الدكتور جورج يصغي باهتمام، ثم عقّب قائلاً:

– لقد كنت على حق طوال هذه السنوات، إلا أنك لم تفسر ما حدث معها أمام هرم حتب حورس..

فقال الدكتور شعبان وقد هدأت سَوْرة غضبه وبدا مرتبكاً:

– لم يحصل شيء.. سوى ضربة شمس.. ربما..

فابتسم الدكتور جورج ابتسامته الصفراء وقال:

– لم يكن مجرد فقدان وعي.. من يفقد الوعي لا يتكلم.. أليس كذلك؟

فقال الدكتور شعبان:

– هي لم تقل سوى كلمة «جميلة الوجه».. ما معنى هذه الكلمة وما دلالتها؟ وما علاقة هرم حتب حورس..

فقال الدكتور جورج:

– ربما لأن هرم حتب حورس هو الذي كان مشيّداً عندما كانت الأميرة على قيد الحياة، وهو الذي يمكن أن تتذكره إن كانت لديها ذاكرة وراثية، وليس الهرم الأوسط، فلا يوجد إنسان يتذكر قبره.. أليس كذلك؟

فتح الدكتور شعبان عينيه بدهشة وهو يقول لنفسه: «كيف فاتني ذلك؟»، ثم عاد الدكتور جورج ليقول وقد شعر بأنه حصل على كامل اهتمام الدكتور شعبان:

– ثم هل تعلم يا دكتور ما معنى اسم حتب حورس باللغة المصرية القديمة؟ إنه يعني بالضبط.. جميلة الوجه..

***

الفصل الخامس

(١١)

قبل ٢٥ سنة:

كانت ساعة الصفر التي حدّدها الدكتور جورج لتنفيذ عملية استخراج المومياء المتوقع وجودها في الهرم الأوسط من أهرام الملكات الثلاث تتطلب اجتماع عناصر عديدة معاً، فالعملية تطلّبت تنسيقاً غير قانوني مع الحراسات المتوزعة في مجمع الأهرام، كما أنها ينبغي أن تكون ليلاً حيث يخفي الظلام تحركات الفريق الذي سيتكوّن من الدكتور جورج ورجال العصابة الثلاثة الذين عقد معهم الاتفاق لمساعدته في إخراج المومياء من مكانها، والذين نُحتت وجوههم بملامح شريرة تثير الرعب بوجه الناظر إليها، كيف لا، وهم عصابة متخصصة بسرقات الآثار والمومياوات، ولا يبالون بارتكاب أي جريمة لقاء مبلغ زهيد من المال، إلا أن المبلغ الذي وعدهم به هذا الباحث الأمريكي النحيل يفوق كل ما حصلوا عليه سابقاً.

عندما وصلت السيارة التي كانت تقلّ الدكتور جورج والدكتور شعبان والدكتورة مريم إلى النقطة المحددة للقاء العصابة في تلك النقطة القريبة من الهرم المقصود، كانت الساعة قد جاوزت منتصف الليل، وكان على الجميع التحرك بسرعة لاستغلال الوقت.

ما إن أبصر الدكتور شعبان وجوه أفراد العصابة المليئة بالشر حتى أصرّ

أن تبقى الدكتورة مريم في السيارة خوفاً عليها، فلم يعارض الدكتور جورج طويلاً، فهو لا يجد لحضورها وزميلها أي فائدة لولا إصرار السيد هاملر على أن يكونا حاضرين معه في كل خطوة يخطوها.

دخل الرجال الخمسة بهدوء وحذر إلى جوف الهرم الأوسط بعد أن تأكدوا من غياب الحراسات الليلية التي سبق الاتفاق معهم على الغياب هذه الليلة بمقابل مادي سخي، وبدأ الدكتور جورج باستعمال جهازه الفاحص لتحديد المكان الذي سبق له تصويره، فتبين أنه صخرة واحدة ضخمة تقع في سقف الغرفة الصغيرة، يبدو أنها اتخذت على هذا النحو لتكون تابوتاً غير مرئي تجنباً لعبث اللصوص.

وبدأ الدكتور جورج بتوجيه الرجال الضخام بالعمل على حفر أخاديد في الصخور المجاورة للصخرة المقصودة لتحريرها من جميع جوانبها، وانطلق الجميع بالعمل تحت إضاءة خافتة من مصابيح كشافة.

وكلما مرّ وقت أطول كان الدكتور شعبان يقوم بجمع التراب وشظايا الصخور المتكدسة ليخرجها خارج المكان، وهو في الحقيقة يخرج للاطمئنان على الدكتورة مريم، فلا يهدأ له بال حتى يراها جالسة في السيارة وقد بدت مشغولة بشيء لم يتعرّف عليه وهو ينظر لها من بعيد، ثم يعود مرة أخرى لتلك الغرفة التي أصبحت خانقة ومليئة بالغبار.

ومع مرور الوقت أصبح الوضع مثيراً للقلق، فقد كان الجميع يعلمون أن العملية ينبغي أن تتم في ليلة واحدة، فمع الصباح سيتبين للجميع أن شيئاً مريباً قد حصل هنا، ولن تكون هناك فرصة ثانية، وحتى أفراد العصابة شعروا بالتوتر لأن الاتفاق معهم كان يقضي بالعثور على المومياء لاستلام النصف

الثاني من المبلغ الذي استلموا نصفه الأول، لذلك أصبحوا يعملون بوتيرة أسرع وبخشونة أكبر من دون أن يتمكنوا من تحريك الصخرة المقصودة.

أصبح الجميع يشعرون بسيف الوقت يوشك أن ينحر أحلامهم، التي كانت أحلاماً متباينة جداً، فرجال العصابة يحلمون بالمبلغ الضخم الذي ينتظرهم والقابع في جيب ذلك الرجل الأمريكي، والدكتور جورج يحلم بإثبات صدق فرضيته حول التوابيت السرية في الأهرام، ثم الحصول على خدمات الدكتور شعبان والدكتورة مريم بعد ذلك كما يقر اتفاقهم. وأما الطبيبان فيحلمان بإنجازمشروعهما الرائد الذي قد يكون أعظم إنجاز عرفته البشرية في تاريخها.

ومع انحسار الوقت تدريجياً، بدأ اليأس يتسرب إلى نفوس الرجال الخمسة في تلك الغرفة الصغيرة داخل الهرم الأوسط من أهرام الملكات الثلاث، ولم يتبق على موعد شروق الشمس سوى ساعة أو أكثر بقليل، وأدرك الدكتور جورج أن العملية توشك على الفشل فقرر القيام بمحاولة أخيرة، حيث طلب إحضار وتد خشبي متين، وقام بحشره ليضغط على أحد أطراف الصخرة التابوت، ثم أمر الرجال الثلاثة بتسليط جهدهم على الطرف المقابل للصخرة، ونفذ الرجال ذلك بكل دقة، وما هي إلا بضع دقائق حتى شعر الجميع بحركة بسيطة في الصخرة.

ازداد التوتر في الغرفة مع ازدياد تحرر الصخرة، ومعه ارتفعت وتيرة العمل، وبعد نصف ساعة أخرى، أخذت الصخرة تميل نزولاً نحو الطرف الذي يعمل الرجال على تحريره، بينما ترتفع في الطرف المقابل الذي يضغط عليه الوتد الخشبي، وبقي وسطها ثابتاً في موقعه.

كانت عينا الدكتور جورج تراقبان حركة الصخرة الغريبة تلك، فأدرك فوراً أنه أمام سرّ جديد من أسرار الأهرام وحيل بناتها، فأوقف الدكتور جورج الرجال عن الحفر، وأمرهم بالعمل مجتمعين على رفع الوتد الخشبي بكل قوتهم ليرفع طرف الصخرة الثقيل من أحد الجوانب فينزل الطرف الثاني أكثر. وبدأ رجال العصابة برفع الوتد المتين بقوة، بينما وقف الدكتور جورج والدكتور شعبان على الطرف الآخر ينتظران هبوط الصخرة، وبعد لحظات لاحت فتحة صغيرة من جانبها، فأمر الدكتور جورج بالمزيد من الرفع، وعندما أصبحت الفتحة أكبر قليلاً، مدّ يده النحيلة خلالها، وأخذ يتلمس ما حوله، ثم أخرجها، وهو يصيح بالرجال:

– أقوى يا رجال.. ارفعوا..

وفجأة! سمع الجميع صوت قرقعة داخل التابوت الصخري، وارتفع الطرف المسنود بالوتر بسهولة ثم توقف، واقترب الجميع من الطرف الآخر ليشاهدوا الفتحة وقد ازدادت اتساعاً، ولاح من خلالها على ضوء المصابيح الكشافة الخافت ذلك اللمعان الذهبي الفرعوني الذي يعرفه كل من شارك يوماً في عمليات التنقيب في هذه المقابر الملكية.

بقي رجال العصابة الثلاثة متسمرين في أماكنهم وقد فتحوا أفواههم من روعة المنظر الذي يشاهدوه لأول مرة في حياتهم، وفجأة سمعوا صوت الدكتور جورج وهو يقول:

– لا تأخذوا شيئاً من داخل التابوت، فهذا التابوت مثل عتلة التوازن، وأي اختلال في أوزان طرفيه تجعله يغلق مجدداً..

نظر رجال العصابة نحو الدكتور جورج، وكان منظر الحلي الذهبية الموضوعة في التابوت الملكي قد طار بعقولهم، فلم يسمعوا كلمة مما قال، وبلحظة واحدة اندفعوا كالثيران الهائجة، وبدأوا يسحبون تلك الحلي من أبعد نقطة تطالها أيديهم نحو الطرف المفتوح، وصرخ الدكتور جورج بهم:

– توقفوا.. أنتم تخربون العمل..

ولم يلتفتوا له، بل استمروا بسحب تلك الحلي بسرعة، فحاول الدكتور جورج منعهم بالقوة، ولكن! أين قوته الضئيلة أمام قوتهم المشحونة بمنظر الذهب الخلاب؟ فدفعه أحدهم بطرف يده فسقط أرضاً.

وبقي الدكتور شعبان يراقب الوضع بهلع، وقد شعر بخطورة الموقف، وعرف أن أفراد العصابة الجشعين باتوا يدركون أن الكنز الذي أمامهم أكبر من أي مبلغ مالي يعرضه عليهم الدكتور جورج، وأنهم لن يمنعهم شيء الآن من الاستيلاء عليه.

كلما سحب رجال العصابة شيئاً من الحلي الذهبية من طرف التابوت، ازداد الضغط على الوتد الخشبي من الطرف الآخر، وكان صراخ الرجال الثلاثة وتدافعهم يمنعهم من سماع صيحات الدكتور جورج، الذي كان يصرخ بهم:

– توقفوا.. سيتكسّر الوتد الخشبي.. احذروا..

وكانت تحذيراته هذه تجعل أفراد العصابة أكثر جنوناً وسرعة، وبلحظة واحدة وبينما كان أحدهم يمدّ ذراعه لاستخراج المزيد من الذهب، انكسر الوتد الخشبي بقوة كأنه قنبلة وتطايرت الشظايا الخشبية في أرجاء الغرفة الصغيرة كالسكاكين، فارتد التابوت بقوة ليكسر ذراعه، فصرخ صرخة قوية هزت المكان، وشاهد الدكتور شعبان والدكتور جورج التابوت يعود لمكانه فوراً،

وانزلاق الصخور المحيطة به لتمنع حركته بشكل نهائي، فاندفعا خارجين من الغرفة نحو الممر فوراً، ثم تبعهما الرجال الثلاثة محملين بالحلي التي تمكنوا من استخراجها.

وفي الخارج، كان ضوء النهار قد بدأ يملأ الأرجاء، نظر الجميع نحو الحلي الذهبية، فاكتشفوا المفاجأة القاسية، إذ أخذت الحلي تكتسي باللون الأخضر بسرعة، فأخذ رجال العصابة يقلبونها الواحدة تلو الأخرى بسرعة وذهول، دون جدوى، ثم صرخ أحدهم:

– ماذا يجري؟ ما هذا؟

فردّ الدكتور جورج وهو ما يزال يلهث:

– هذه حيلة أخرى من بناة الأهرام، هذه الحلي من نحاس، وحالما امتزجت بالأوكسجين تغير لونها على هذا النحو.. لم تكن موضوعة في التابوت إلا لتغري أمثالكم فيسطوا عليها فينغلق التابوت إلى الأبد.. ما أغباكم..

كان الغضب والإحباط يغليان في أدمغة الرجال الثلاثة وهم يستمعون لهذا الأمريكي المتعجرف يصفهم بهذه الصفات، لكنّ أحدهم كان جالساً يئنّ من ألم يده المكسورة، بينما قام الاثنان الآخران بغضب نحو الدكتور جورج وقالا:

– هات بقية المبلغ يا هذا..

فقال الدكتور جورج فوراً وقد بدأ يشعر بالخوف:

– لكنكم لم تستخرجوا المومياء.. كان اتفاقنا..

فصرخ أحدهم به بقوة وقد استخرج سكيناً من حزامه:

– هات المال وإلا قتلناك هنا..

وحالما أبصر الدكتور جورج السكين بيد الرجل، جفل فوراً، وتراجع مسرعاً، ثم بدأ يركض في الطريق، وعندما همّ الرجل باللحاق به، دوّت في الأرجاء أصوات سيارات شرطة، فانطلق كل من كان عند مدخل الهرم باتجاه، وأسرع الدكتور جورج والدكتور شعبان نحو السيارة حيث كانت تنتظرهما الدكتورة مريم، وما إن ركبا حتى انطلقوا مسرعين.

كان وجه الدكتور شعبان كافياً ليبين للدكتورة مريم أن المهمة باءت بالفشل، لكنّ ما أثار استغرابها تلك الابتسامة الباردة المرسومة على وجه الدكتور جورج، الذي شعر بها تنظر له باستغراب، فمدّ يده في جيبه وأخرج علبة صغيرة فيها قطعة من نسيج المومياء الملكية كان قد انتزعها أول ما وضع يده في فتحة التابوت، فوضع العلبة بيد الدكتورة مريم وهو يقول:

– لقد قلت أنك ستكتفين بقطعة صغيرة من المومياء..

***

(١٢)

بعد ٢٥ سنة:

جلس الدكتور جورج بهدوء وهو ينظر عن كثب نحو آسيا نظرة دهشة وانتصار، وبادلته هي بالمقابل نظرة استغراب، وقال الدكتور جورج:

– كيف حالك أيتها الأميرة؟

ازداد استغراب آسيا التي التفتت نحو أبيها متسائلة فبادر الدكتور شعبان قائلاً:

– اسمحا لي أن أعرفكما على الدكتور جورج ستيفن.. صديقي القديم.. وهو باحث آثاري أمريكي..

بينما تعجبت آسيا من كلام أبيها، فهي لم تعرف أن له صديقاً أصلاً، فضلاً عن صديق أمريكي، إلا أن وصفه إياه بالقديم ربما يفسّر عدم معرفتها به من قبل، لكنه يستخدم نفس اللقب الذي يناديها به أبوها.

أمّا الأستاذ هشام فتحمّس بسعادة وهو يقول:

– ما شاء الله.. أنا أعرف الدكتور جورج.. سبق لي أن شاهدت عدداً من محاضراتك سيدي عبر النت، وأنا من أشد المعجبين بمنهجيتك في البحث..

فوجيء الدكتور جورج بكلام هذا الشاب المصري الذي يتابع محاضراته، فابتسم بوجهه شاكراً إطراءه، قبل أن يقول الدكتور شعبان وهو يشير نحو الأستاذ هشام:

– الأستاذ هشام، أستاذ التاريخ، وهو مرشدنا الآثاري حالياً..

ثم أشار الدكتور شعبان نحو ابنته وهو يقول:

– ابنتي آسيا.. طالبة ماجستير في التاريخ بجامعة بغداد.. وستدرس الحضارة الفرعونية..

ابتسم الدكتور جورج ابتسامة واسعة، مرحّباً بهذه الشابة الجميلة التي كانت تمثّل له الكثير، ثم قال:

– أهلاً وسهلاً بالأميرة.. هل أنت بخير؟ رأيتك اليوم صباحاً تفقدين الوعي عند هرم الملكة حتب حورس، وكنت مع وفد سياحي، ثم انتبهت إلى وجه صديقي القديم، الدكتور شعبان، الذي لم أره منذ ٢٥ سنة..

ابتسمت آسيا لهذا السيد العجوز مرحّبة به ثم قالت:

– أهلاً وسهلاً دكتور.. أنا بخير الآن.. سعيدة بمقابلتك، فأنت صديق أبي الوحيد الذي أقابله..

فبادر الدكتور شعبان قائلاً:

– الدكتور جورج قرر مرافقتنا في جولاتنا الآثارية..

شهق الأستاذ هشام سعادة بهذا الخبر، وشاركته آسيا الشعور ذاته، فالدكتور جورج الآن ليس مجرد باحث آثاري كبير ومهم ستفيد من خبرته العظيمة في بحثها، لكنه أيضاً صلتها الوحيدة فيما يبدو بتاريخ أبيها، وفرصتها لإجابة تساؤلاتها، وقد قررت ألا تفوّت هذه الفرصة العظيمة.

اعتدل الدكتور جورج بجلسته وقال:

– اسمحوا لي أن أقترح عليكم زيارة الهرم الأكبر.. هرم خوفو.. علمت من الدكتور شعبان أنكم مررتم بقربه فقط وذهبتم مباشرة نحو أهرام الملكات..

ففرح الشابان بالاقتراح، بينما نهض الدكتور شعبان قائلاً:

– أستاذنكم.. سأحضر بعض المشروبات الباردة..

انتظر الدكتور جورج حتى ابتعد الدكتور شعبان قليلاً ثم وجه سؤاله بصوت خفيض لآسيا قائلاً:

– هل تذكرين شيئاً عند سماعك اسم الفرعون خوفو؟

فابتسمت آسيا قائلة:

– ومن لا يعرفه يا دكتور.. هل نسيت أنني أدرس ماجستير تاريخ؟

فتلعثم الدكتور جورج قبل أن يقول:

– لا لا.. لم أقصد ذلك.. لا بأس.. أعني هل يمثل لك هذا الاسم شيئاً؟.. خوفو.. أو كوبوس كما في اللغة اليونانية..

لم تفهم آسيا غرضه من السؤال لكنها قالت:

– بالتأكيد.. هذا الاسم يذكرني بقوة وجبروت الحضارة الفرعونية..

في هذ اللحظة تدخل هشام قائلاً:

– حسنا.. أظن أن الدكتور جورج يسأل عن معنى الاسم.. الاسم الأصلي للملك خوفو هو «خنوم خوفو» ومعناه خنوم يحميني، وخنوم هو أحد الآلهة المعبودة في ميثولوجيا مصر القديمة، ولا يُعرف السبب الذي جعل الاسم مختصراً في لفظة «خوفو» فقط، وهي مكونة من ثلاث مقاطع؛ «خوي–إف–وي»، والتي معناها «هو يحميني»..

رغم أن الدكتور جورج كان يقصد غرضاً آخر من سؤاله إلا أنه استمتع بشرح الأستاذ هشام ومعلوماته، وكان يستمع باهتمام، ثم قال:

– تحليل جميل يا أستاذ هشام.. يبدو أننا سنتناقش طويلاً في الأيام القادمة..

شعر هشام بالزهو لهذا الإطراء من هذا العالم الكبير، وخصوصاً أنه ذكره أمام آسيا، التي نظرت له وفي عينيها ابتسامة فرح وغبطة.

في تلك اللحظة أقبل الدكتور شعبان يحمل معه المشروبات الباردة، وجلس للمجموعة قائلاً:

– هل فاتني شيء هنا؟

فأجابه الدكتور جورج:

– فاتك شرح الأستاذ هشام حول أصل اسم خوفو واشتقاقه، هذا الشاب لديه معلومات غزيرة..

فابتسم الدكتور شعبان وهو ينظر نحو الأستاذ هشام ويقول:

– هو الآن موظف لدينا، ولن نسمح لك بأخذه منا يا صديقي..

ضحك الجميع، قبل أن ينتبهوا لقدوم رجل ضخم أسمر، مفتول العضلات، يتدلى جزء من شعره الفاحم على نصف وجهه ويقف بالقرب منهم، فلما رآه الدكتور جورج بادر قائلاً:

– اه.. نسيت أن أعرفكم بسكرتيري السيد كيفن، وسيساعدنا في الوصول لأي مكان نريده.. فهل أنتم مستعدون الآن لجولة الهرم الأكبر؟

وافق الجميع وانطلقوا ليجدوا سيارة كارفان فارهة، يملكها الدكتور جورج، بانتظارهم عند مدخل الفندق، فصعد الجميع فيها، واتجهوا صوب الهرم الأكبر، هرم خوفو.

وعند وصولهم إليه، تجولوا حوله، وكان الأستاذ هشام يشرح للجميع تفاصيل بناء الهرم، وحجارته، وأبعاده، دون أن يحدث شيء مما كان يرقبه وينتظره الدكتور جورج والدكتور شعبان، بل على العكس كانت آسيا تتحرك بنشاط وسعادة حول هذا الصرح العظيم، وقبل أن ينهوا جولتهم طلبت آسيا أن تزور مراكب الشمس، وهي بجوار الهرم، فانطلقت مع الأستاذ هشام، فيما جلس العجوزان ليستريحا، فهمس الدكتور شعبان في أذن الدكتور جورج قائلاً:

– ألم أقل لك يا صديقي لا حقيقة لما تخيلناه.. ها هي لم تتذكر شيئاً عند هرم خوفو..

فردّ الدكتور جورج بثقة:

– إن لهذا الأمر عندي تفسيراً مهماً أيضاً.. سأعلمك به قريباً..

وبقي الرجلان يتبادلان الكلام لدقائق أخرى قبل أن تبدو لهما آسيا وهي متكئة على يد الأستاذ هشام، وتترنح في سيرها، وقد بدت شاحبة الوجه، فقفز الدكتور شعبان من مكانه ليتلقفها وهو يصيح:

– ماذا هناك؟ ما بك يا أميرة؟.. ماذا حصل يا هشام؟..

فهدأه الأستاذ هشام قائلاً:

– لا تخف يا دكتور.. آسيا بخير.. لقد شعرت بدوار خفيف عند مراكب الشمس..

جلست آسيا داخل السيارة الكرفان وأحاط بها الرجال الثلاثة، فعاد الدكتور شعبان ليسألها:

– ماذا حصل؟

فقالت بعد أن التقطت أنفاسها وعادت حمرة وجهها:

– حالما رأيت مركب الشمس تراءت لعيني فجأة صور غريبة اختلطت مع المنظر الواقعي الذي أمامي..

فقال الدكتور جورج فوراً:

– ماذا رأيت يا أميرة؟

فعادت آسيا لتقول:

– كنت أنظر نحو مركب الشمس الأثري.. وإذ به يصبح لامعاً وجديداً.. وبجواره مجموعة رجال كأنهم يعملون على تركيبه.. وبرز منهم رجل بدين ذو ملامح حادة.. شعرت لوهلة كأني أعرفه..

سكتت آسيا للحظة فقال الدكتور جورج وهو يحثها على الكلام:

– ثم ماذا؟..

فقالت:

– ثم اختفت هذه الصور وعدت أنظر للواقع، ولكن شعرت بدوار، وكدت أن أقع أرضاً..

ثم نظرت آسيا نحو أبيها قائلة:

– كانت صورة واحدة غير متحركة يا أبي.. مثل صورة المرأة التي رأيتها في الرؤيا صباح اليوم..

برزت عينا الدكتور جورج من مكانهما وهو يسمع كلامها فقال:

– هل رأيت رؤيا مماثلة صباح اليوم؟

كان الدكتور شعبان ممتعضاً وهو يسمع آسيا تحكي لهم الرؤيا، ولكن تعليق الأستاذ هشام أثار انتباهه، فقد قال:

– أنا أعرف من هي المرأة الجميلة على السرير الذهبي والتي تلبس طوقاً من أزهار اللوتس.. أما البقعة السوداء على بطنها فلا أعرف معناها..

فقال الدكتور جورج فوراً:

– قل لنا ما تعرفه..

فال الأستاذ هشام:

– إنها الملكة التي تصوّرها النقوش دائماً مع زهرة اللوتس.. إنها حتب حورس

***

الفصل السادس

(١٣)

قبل ٢٥ سنة:

انطلقت السيارة التي كانت تقلّ الدكتورة مريم والدكتور شعبان والدكتور جورج مسرعة نحو معهد الهندسة الوراثية في القاهرة كما طلبت الدكتورة مريم لمعاينة العينة وفحصها فحصاً أولياً، بعد أن تمكنوا من الفرار من موقع مجمع الأهرامات دون خسائر كبيرة..

كانت الدكتورة مريم تحتضن العلبة الصغيرة التي أعطاها لها الدكتور جورج، وهي تشعر أن مصيرها معلق بها، ها هو ذا حلمها بين يديها، ومستقبلها العلمي قاب قوسين أو أدنى من بلوغ أقصى قمة يمكن لعالم بلوغها. كان عقلها يخطط لكل خطوة مقبلة؛ كيف ستستخرج النسيج الأمثل لإجراء التجربة، كيف ستحفظ العينة المثلى لإجراء الاستنساخ، كيف ستقوم بتحفيز الخلية لبدء الانقسام، كيف ستزرع الخلية الجنين..

بلغت السيارة التي قادها الدكتور جورج غايتها بسرعة مع قلة الزحام في شوارع القاهرة في هذه الساعة المبكرة من اليوم، ونزلت منها الدكتورة مريم وصديقها الدكتور شعبان قاصدَين المعهد، بينما أسرع الدكتور جورج لإحضار أغراضه الشخصية من الفندق، لأنّ أفراد العصابة كانوا يعرفون مكانه، وقد يلحقون به للانتقام منه، أو ربما قد وقعوا بيد الشرطة فيكشفون لهم علاقته بالعملية كلها، ثم إنّ عليه أن يبلغ السيد هاملر بما جرى معهم، فهذا الجشع يعدّ مصدر خطر أكبر من كل أفراد العصابة.

سمح حارس بناية معهد الهندسة الوراثية للدكتورة مريم والدكتور شعبان بالدخول في هذا الوقت المبكر لأنه يعرفهما جيداً، ولما يظهر عليهما من عجلة توحي بأهمية ما جاء بهما في هذا الوقت، فاندفع الاثنان صوب المختبر العلمي، حيث استخرجت الدكتورة مريم بهدوء وحذر شديدين العينة المنزوعة من المومياء، من العلبة ووضعتها تحت المجهر لتفحّصها ومعرفة حالتها، بينما انشغل الدكتور شعبان بتهيئة أجهزة حفظ العينات، ومواد الحفظ، وغيرها.

وبعد دقائق من الفحص الأولي، رفعت الدكتورة مريم رأسها، ونظرت نحو الدكتور شعبان بيأس قائلة:

– النسيج يوشك على التلف، وخلاياه تتآكل تدريجياً بعد انتزاعه من المومياء الأصل.. سيتلف كله خلال دقائق..

اندفع الدكتور شعبان لينظر بنفسه في المجهر، رغم ثقته بقدرة زميلته العلمية، إلا أنه أراد التأكد بنفسه، فقال فوراً:

– لنحفظه في درجة حرارة منخفضة..

ردت الدكتورة مريم بإحباط:

– لا أظن ذلك سيفيد في منع تآكل الخلايا، ربما يؤخرها بعض الشيء..

أجاب الدكتور شعبان:

– لا بأس.. لنحاول هذه المحاولة.. ثم نرى ما يمكن أن نفعل بعدها..

في ذلك الوقت كان الدكتور جورج ستيفن قد جمع أغراضه في الفندق، وهبط مسرعاً نحو الاستقبال لتأكيد الخروج، فأبصر من بعيد مجموعة من رجال الشرطة يقفون عند موظف الاستقبال ويستفسرون منه، فاستدار من فوره،

وخرج من باب جانبي، ثم ركب سيارة أجرة متجهاً نحو الفندق الذي يسكنه السيد هاملر، وفي غضون عشرين دقيقة كان جالساً مع السيد هاملر، الذي كان يستشيط غضباً من الوضع الذي انتهت إليه خطتهم، وبعد أن أجرى اتصالات مع بعض معارفه، علم من خلالهم أن الشرطة ألقت القبض على العصابة التي كانت تقوم بعمليات سرقة آثار، وقد ادّعى أفراد العصابة أنّ رجلاً أمريكياً كان قد اتفق معهم على السرقة، إلا أن الشرطة لم تتمكن من الوصول إليه.

هدأ السيد هاملر قليلاً ثم قال:

– اسمعني يا جورج.. سنرى أولاً ما الذي توصّل له الطبيبان، ثم سنقوم بتهريبك خارج البلد..

في هذه الأثناء كان الدكتور شعبان يفحص العينة بعد التبريد، فلم يجد فرقاً كبيراً في سرعة تآكل الخلايا، فجلس على كرسيه خائر القوى بعد ليلة شاقة لم ينم فيها، وقابلته الدكتورة مريم التي كانت ترى آخر آمالها تطير من بين يديها، وزاد في شعورها باليأس والحزن الكيفية التي سارت بها الأمور في الليلة الماضية، والتي تجعل تكرار المحاولة أمراً مستحيلاً، وها هي الآن تجلس مع زميلها الدكتور شعبان تنتظر إعلان تلف العينة النسيجية بشكل تام، وفجأة! وبلا شعور، صاحت بصوت مرتفع:

– ولماذا الانتظار؟ لمَ لا نبدأ التجربة فوراً؟..

نظرت نحو زميلها وقالت فوراً:

– لنبدأ يا دكتور..

رفع الدكتور شعبان رأسه ونظر إليها وهي تلملم المستلزمات الضرورية، وقال:

– نبدأ ماذا؟

فقالت وهي تنظر فيما حولها:

– سنبدأ تجربة الاستنساخ على الجزء الصالح من العينة..

فقاطعها الدكتور شعبان:

– لكن يا دكتورة.. نحن لم نخطط لهذا.. ثم كيف نصنع إن نجحت التجربة واستُحثّت الخلية؟ أين سنزرعها؟ أين المرأة المتبرعة؟

فردّت الدكتورة مريم بحزم قائلة:

– لدينا هنا كل المستلزمات المطلوبة، وأما المرأة المتبرعة فلا حاجة لها.. أنا سأكون تلك المرأة..

***

(١٤)

بعد ٢٥ سنة:

كان الدكتور شعبان يقول للدكتور جورج بصوت منخفض بعد أن أنهوا جولة مكررة حول هرم حتب حورس لكن هذه المرة من دون أن تشعر آسيا بأي شيء:

– يبدو أن استرجاع الذاكرة الوراثية يكون ومضيّاً، كالبرق في الليل، يلمع فجأة ثم يختفي للأبد..

كان الدكتور جورج يستمع له وهو غارق في تأملاته، ثم قال:

– علينا إذن ألا نضيّع من هذه الومضات شيئاً..

وسأل الدكتور شعبان هامساً:

– لكن! لماذا لم تنشط ذاكرتها تلك لرأى الهرم الأكبر؟

فأجاب الدكتور جورج هذه المرة بصوت عالٍ متعمداً أن يُسمع الأستاذ هشام:

– الذي أظنه أن الهرم الأكبر، هرم خوفو، بني بعد أهرام الملكتين حتب حورس وميريتيتيس، وهذا يفسّر وجود هرميهما شرقي هرم الفرعون، لا جنوبه، كما هي عادة الفراعنة في إلحاق أهرام نسائهم إلى الجنوب من أهرامهم.. ما رأيك يا هشام؟

انتبه هشام وآسيا لكلام الدكتور جورج، فأجاب الأستاذ هشام بعد لحظة تأمل:

– تفسير منطقي جداً لهذا الاختلاف النوعي سيدي.. في الحقيقة هذه أول مرة أفهم سبب وجود أهرام الملكات شرقي الهرم الأكبر.. لكن لماذا كان هرما الملكتين حتب حورس، وميريتيتيس محاذياً للهرم الأكبر تماماً بينما جاء الهرم الثالث للملكة حنوتسن إلى الجنوب من الهرمين وخارج محاذاة الهرم الأكبر؟

فأجاب الدكتور جورج فوراً:

– ربما لأن الملكة حنوتسن ماتت بعد الفرعون خوفو.. فلم يكن لبناة هرمها أن يجعلوه إلا في موضعه.. ربما..

بعد لحظة تأمل وصمت، عاد الدكتور جورج ليوجه كلامه نحو الجميع:

– بعد أن رأينا هرم الملكة حتب حورس، أم الفرعون خوفو، ما رأيكم أن نذهب غداً نحو هرم زوجها، والد الفرعون خوفو؟

فقال الأستاذ هشام:

– الفرعون الكبير سنفرو.. له هرمان؛ الهرم الأحمر والهرم المائل.. وكلاهما في دهشور.. وهي غير بعيدة من هنا، تبعد ٢٥ كيلومتراً جنوب الجيزة..

نظر الدكتور شعبان نحو ابنته وسألها:

– إن كنت تشعرين بالتعب.. فيمكننا تأجيل هذه الرحلة..

فأجابت آسيا فوراً:

– لا لا يا أبي.. أنا مرتاحة جداً، وسأكون جاهزة لهذه الجولة غداً..

فضحك الجميع لردة فعلها الطفولية العفوية.

وفي صباح اليوم التالي، انطلق الكرفان مبكراً نحو النقطة التي أشار الدكتور جورج لسكرتيره بها، وبعد أقل من عشرين دقيقة توقفت في دهشور؛ ذلك

المكان الخلاب الذي يجمع بين سحر الصحراء وآثارها من جهة، وبين مياه النيل وبصمته الخضراء من الجهة الأخرى.

ولاح لهم هرم سنفرو المائل، فانبرى هشام ليشرح لهم عن الفرعون سنفرو، فالتفت إليه الدكتور جورج مشيراً بيده ليتوقف، ثم همس في أذنه:

– لنؤجل الشرح عن الفرعون سنفرو قليلاً..

كان الدكتور جورج يتعمد أن يرى استجابة آسيا لرؤية الهرم من دون تأثير مسبق فاستجاب هشام فوراً من دون أن يفهم سبب هذا التوجيه الغريب.

نزل الجميع وبدأوا السير نحو الهرم، وبينما هم يقتربون أكثر كان الدكتور شعبان والدكتور جورج يسيران جوار آسيا، ويسترقان النظر إلى وجهها بين الحين والحين، وشعر الدكتور شعبان أنها قد بدت شاحبة بعض الشيء، فأمسك بيدها، وما أن وصلوا على مقربة بضعة أمتار من الهرم، أحسّ الدكتور شعبان بيد آسيا تتشنج في كفّه، ثم تتصلّب، فنظر نحو وجهها فإذا بتلك النظرة الشاخصة ترتسم مجدداً على وجهها، ثم أغمضت عينيها وهي تقول: «موعود بالحُسن»، ثم ارتخى جسمها بأكمله، وهرع هشام ليعين الدكتور شعبان على حملها، بينما كان الدكتور جورج متسمّراً في مكانه وعيناه جاحظتان.

عاد الجميع نحو السيارة ووضعوا آسيا على الأريكة المريحة فيها، وصرخ الدكتور شعبان بالسيد كيفن الذي كان يقود السيارة: «انطلق نحو أقرب صيدلية بسرعة»..

وبينما توقفت السيارة قرب الصيدلية، ونزل الدكتور شعبان والأستاذ هشام بسرعة، بقي الدكتور جورج ينظر لهذه الشابة الرقيقة، التي كانت قد بدأت

تفتح عينيها الجميلتين، وبدلاً من أن ترى أباها كالعادة، كان الدكتور جورج ينظر لها بحنو، فابتسمت بوجهه وقالت:

– هل حدث معي نفس الإغماء؟

فأجابها بهدوء:

– لا بأس أيتها الأميرة.. أنت بخير..

فنظرت من حولها، ولم تجد أباها أو الأستاذ هشام، فبادرها الدكتور جورج بالقول:

– لقد نزل أبوك للصيدلية.. لا تخافي..

أرخت آسيا رأسها مجدداً على الأريكة، فقال لها الدكتور جورج:

– هل رأيت صورة أخرى أيتها الأميرة؟

فابتسمت له وهي تسمع هذا اللقب المحبّب إليها، وقالت:

– نعم.. رأيت رؤيا على هيئة صورة واحدة، عرفت فيها صورة أبي الدكتور شعبان مختلطة بصورة رجل آخر لا أعرفه، لكنني شعرت بالود تجاههما..

بقي الدكتور جورج صامتاً فبادرته آسيا فوراً وسألته:

– منذ متى تعرف أبي يا دكتور؟

فقال لها مبتسماً:

– منذ خمس وعشرين سنة..

فسألته مرة أخرى:

– وما الذي جمعكما معاً؟..

فلم يتمالك نفسه أمام سحر عينيها ولم يجرؤ على الكذب، فقال:

- كنا نبحث عن كنز..

ضحكت آسيا وهي ما تزال ممدّدة على الأريكة، وسألته:

- عن أي كنز كنتما تبحثان؟

فعاد الدكتور جورج ليقول مبتسماً:

- كنا نبحث عنك..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل السابع

(١٥)

قبل ٢٥ سنة:

لم يكن بيد الدكتور شعبان أي خيار آخر أمام إصرار الدكتورة مريم، فقد حاول إقناعها بشتى الطرق لثنيها عن إجراء غرس الخلية المستنسخة فيها، إلا أنه لم يتمكن من إيجاد بديل مقنع إزاء عنادها الهائل. وبعد أقل من ساعة كانت الدكتورة مريم في غرفة العمليات حيث قام الدكتور شعبان بغرس الخلية الوحيدة التي نجح معها التحفيز الكيمياوي في رحمها لتبدأ بالانقسام وتكوين جنين من تلك المومياء الفرعونية الملكية.

وبعد إنجاز المهمة، لملم الاثنان جميع أغراضهما، فقد أوشك المعهد على فتح أبوابه، فخرجا يسيران بخطى مثقلة من شدة التعب الذي أصابهما في الليلة الماضية، وما إن صارا خارج أسوار المعهد حتى فوجئا بسيارة مظللة تقف أمامهما مباشرة ليخرج منها مجموعة من الرجال الأشداء ويطلبون منهما الركوب فوراً، وعرّفوا عن أنفسهم بأنهم رجال السيد هاملر.

لم يكن لدى الدكتور شعبان والدكتورة مريم خيارات كثيرة، فقد وجدا نفسيهما بليلة وضحاها في موقف صعب، فهما من جهة تحت وطأة هذا الرجل الغريب، السيد هاملر، الذي يريد استغلال المشروع لأغراضه المادية الجشعة، ومن جهة أخرى فقد خالفا قوانين البلد وساهما في سرقة وإتلاف آثار مهمة، وبكل الاعتبارات فهما الآن لا يملكان إلا المضي قدماً في ما أقدما عليه.

بعد ساعة، كان الدكتور شعبان والدكتورة مريم يجتمعان بالسيد هاملر والدكتور جورج في بيت صغير في منطقة نائية من أطراف القاهرة، حيث أحاط رجاله بالمكان كما أوصاهم، وأخبراه بتلف العينة التي انتزعها الدكتور جورج من المومياء، وكيف قاما بمحاولة يائسة أخيرة وزرعا الخلية المستحثة قبل تلفها في رحم الدكتورة مريم. لم يكن السيد هاملر معنيّاً بهذه التفاصيل العلمية، وبقي ينظر لهما فاغراً فاه، ثم قال:

– يعني هل نجح الأمر؟

قالت الدكتورة مريم بهدوء:

– لا يمكن الجزم بذلك.. لكننا قمنا بالشيء الوحيد الذي كان يمكن القيام به..

لم يكن السيد هاملر يشعر بالارتياح لهذه الإجابة، فأردف قائلاً:

– كيف لا يمكن الجزم؟ متى يمكن أن نعرف؟

فقال الدكتور شعبان:

– خلال بضعة أيام، أو أسابيع ربما.. فإما أن يكتمل الغرس بنجاح كحمل طبيعي، أو لن يحدث شيء مطلقاً..

شعر السيد هاملر بخطر هذه الاحتمالية، فنظر نحو صديقه جورج وقال:

– وفي حالة الفشل.. سنتمكن من تكرار المحاولة مجدداً.. أليس كذلك جورج؟

طأطأ الدكتور جورج رأسه لحظة ثم نظر نحو السيد هاملر وقال:

– لا أظن ذلك ممكناً.. إن كانت العينة التي انتزعتها من المومياء قد تلفت بين يدي الدكتورة مريم، فإن باقي المومياء كلها قد تلفت..

فقال الدكتور شعبان مؤيداً كلام الدكتور جورج:

– هذا صحيح.. فالمومياء تحتفظ بخلاياها ما دامت متصلة، أما عندما يُنتزع جزء منها ويتعرض للهواء تبدأ الخلايا بالتلف والتآكل تباعاً.

ثم عقّب الدكتور جورج:

– كما أن استخراج باقي المومياء سيكون مستحيلاً الآن بعد حشر التابوت بين الصخور.. كما أن الشرطة ستتنبّه الآن لوجود سرقات أثرية.. ولن تترك المكان بلا حراسة.. لا أظن أننا قادرون على تكرار المحاولة يا عزيزي..

فسكت السيد هاملر دقيقة ثم ضرب فجأة على فخذيه وقال وهو ينهض قائماً:

– إذن، فكنزنا الآن بين الحياة وعدمها في رحم هذه المرأة.. لا بأس.. من هذه اللحظة ستبقى الدكتورة مريم تحت عناية خاصة، وسيتابع رعايتها الدكتور شعبان، وستكون قريباً منهما يا جورج.. ولن يغادر أحد منكم المكان الذي اخترته لسكنكم إلا بموافقتي..

وقف الدكتور شعبان وقال بغضب:

– كيف تقول ذلك يا سيد؟ هل نحن مختطفون؟ هل نحن..

فقاطعه السيد هاملر وقال بصوت هادر وقوي:

– اسمع يا هذا.. لقد حذرتكم في السابق أنني لا أضيع مالي عبثاً.. مصيركم أنتم الثلاثة يكمن في الحفاظ على ما بجوف هذه المرأة.. وأي فشل يعني نهايتكم.. فاحرصوا على ذلك..

وساد الصمت للحظة بينما تبادل الدكتور شعبان والسيد هاملر نظرات التحدي، فحاول الدكتور جورج تهدئة الأمور قائلاً:

– لا بأس يا سيد هاملر.. لا بأس.. سيكون كل شيء على ما يرام.. دعني أنقل الدكتورة مريم والدكتور شعبان معي إلى أمريكا لكي نحرص على توفير الرعاية الطبية اللازمة..

فقاطعه السيد هاملر وقد استدار ليخرج من الغرفة:

– بل ستكونون جميعاً تحت نظري.. وبعد ساعة من الآن سيأخذكم رجالي إلى مقركم القادم في قبرص..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(١٦)

بعد ٢٥ سنة:

وافق الدكتور شعبان والدكتور جورج على مقترح الأستاذ هشام بالذهاب إلى عزبة هادئة وجميلة تطلّ على بحيرة الفيوم يملكها أحد أصدقائه، لتستريح فيها آسيا قليلاً، بعد نوبات الإغماء التي حدثت معها خلال هذين اليومين.

لقد كان المكان جميلاً حقاً كما وصفه الأستاذ هشام، بما اجتمع فيه من طبيعة نقيّة، وهدوء متصل لا يحرّك أوتاره إلا أصوات الطيور العذبة.

لقد كان بيت العزبة عصريّاً وأنيقاً، وخصوصاً غرفة الجلوس التي اختار صاحبها أن يجعلها تطلّ على بحيرة الفيوم عبر واجهة زجاجية تسمح للجالس فيها بمراقبة غروب الشمس في حضن البحيرة الهادئة الوادعة. وعلى الرغم من التفاف المزروعات والأشجار بكل جوانب البيت، إلا أن الإطلالة الغربية على شاطيء البحيرة بقيت طبيعية لم تمسسها يد التغيير، تتكوّن من رمل ناعم يداعب أقدام السائرين عليه برقة، وبعض تجمّعات القصب التي أكملت جمال صورة المكان وزادته رونقاً وسحراً.

بعد تناول الغداء الريفي الشهي، قضت آسيا فترة العصر مع هشام في جولة بين أشجار العزبة ومزروعاتها، والتقطت العديد من الصور التذكارية، واستمتعت بمنظر الماشية وأصواتها الفطرية النقية، وهمسات الطيور التي وجدت في هذا المكان ضالتها. وزاد في استمتاعها تلك الكلمات الرقيقة التي كان يحشرها هشام في طيّات كلامه بين الحين والحين، واصفاً لهفته عليها، وإعجابه بها.

أما العجوزان فلم يكونا قادرين على التجوال مع الشابين، فاكتفيا باحتساء المشروبات المصرية العريقة التي كانت تعدها لهما خادمة العزبة واحداً تلو الآخر، وقد اتخذا مجلساً هادئاً بين أشجار الليمون الخضراء، بينما بقي السيد كيفن سكرتير الدكتور جورج قريباً منهما.

قال الدكتور شعبان بعد أن اطمأن على صحة ابنته:

– اسمعني يا دكتور جورج.. أنا لا أريد تكرار المزيد من محاولات استثارة الذاكرة الوراثية لآسيا، فقد ثبت لنا صدق ما كنّا نختبره، وعرفنا حقيقة الذاكرة الوراثية، وكيف أنّها لا تنتقل بتفاصيل يمكن الإفادة منها، بقدر ما تنتقل على هيئة صور وأسماء متفرقة وغير مفهومة، لذلك أرى أن نكتفي بما توصلنا إليه.

فقال الدكتور جورج:

– لكنك تعلم يا دكتور أنّ النتيجة النهائية التي تتكلم عنها لا يمكن استنتاجها من خلال حادثتين أو ثلاث فقط، فنحن لا نعلم فيما إن كانت هذه الومضات التي تراها آسيا يمكن أن تتطور لاحقاً، فتسترجع قدراً أكبر من الذكريات المهمة أم لا.. إنها الآن أشبه أن تكون فاقدة للذاكرة، ويحدث لها استرداد لحظي لبعض الصور والمشاهد عند تذكيرها بشكل مباشر، فالأمر قابل للتطوّر كما تعلم..

قاطعه الدكتور شعبان قائلاً:

– لكنني أخشى عليها كثيراً، فهذه الإغماءات المتكررة مجهولة عندي، ولا يمكن وصفها بحالة طبية معينة.. وأنا أخشى أن تتحول لحالة أكثر تعقيداً..

سكت الدكتور جورج وأطرق رأسه في الأرض ثم قال:

– في الحقيقة يا دكتور.. أنا لا ألومك على حرصك الشديد على آسيا، فأنا منذ أن رأيتها وأنا أشعر تجاهها بعطف وحبّ.. عندما استيقظت من إغماءتها

هذا اليوم، ونظرت نحوي، أحسست بكل ما تشعر به أنت الآن من مشاعر الأبوة رغم أني مثلك لم أجرّبها من قبل..

فقال الدكتور شعبان وهو ينظر بعيداً:

– أمّا أنا فقد جربت هذه المشاعر طوال السنين الماضية.. فرغم أني كنت أظن أنني سأتعامل مع هذه الطفلة قبل أن تولد على أنها حالة بحثية فحسب.. إلا أن مشاعر الأبوة ملأت كل كياني منذ اليوم الذي رأيت فيه وجهها الجميل وأنا في عرض البحر بعد فراري من هاملر..

وفجأة تذكر الدكتور شعبان رؤيا آسيا فقال:

– ولكن هل عرفت معنى الرؤيا التي رأتها آسيا هذا اليوم؟

فقال الدكتور جورج بهدوء:

– الملك سنفرو صاحب الهرم المائل هو أبو الملكة ميريتيتيس، وأنت أبو آسيا، فلعل الرجل الغريب الذي رأته في الرؤيا هو الملك سنفرو..

فعاد الدكتور شعبان ليسأل:

– وما معنى «الموعود بالحسن»؟

فأجاب الدكتور جورج:

– لست متأكداً.. سنسأل الأستاذ هشام..

كانت آسيا في تلك الأثناء تخبر هشام أثناء عودتها من الجولة بين الأشجار عما قاله لها الدكتور جورج عند استيقاظها من إغماءتها، فقالت:

– لقد أخبرني أنه التقى أبي عندما كانا يبحثان عن كنز.. وهذا الكنز هو أنا..

فأطرق هشام ناظره للأرض وقال:

– عبارة غريبة.. ولكنه ليس الشيء الغريب الوحيد من أبيك والدكتور جورج، فأنا تساءلت أيضاً عن أسباب اختيار بعض الآثار المتفرقة والأقل أهمية ربما في التجوال.. فأهرام الملكات والهرم المائل في دهشور يقصدها السيّاح والباحثون بالعادة بعد أن يمروا بالآثار الأشهر والأكبر.. لا أعرف..

ثم تساءلت آسيا:

– وماذا عن هذه الإغماءات التي تنتابني عند رؤية الآثار؟ والكلمات التي أقولها دون وعي.. حتى أني لا أتذكر منها شيئاً فيما بعد.. والرؤى والصور التي تتراءى لي..

ابتسم هشام ليخفف عنها التوتر وقال مازحاً:

– لا بأس.. لا تخافي.. أنت مرحّب بك في بلاد الفراعنة.. فلن تصيبك لعنتهم..

ضحكت آسيا، بينما كانا قد وصلا لمجلس الدكتور شعبان والدكتور جورج، فنظر هشام إلى الشمس وهي توشك على الغروب فقال:

– هلمّ بنا سادتي لنرقب منظر مغيب الشمس من الصالة.. فهو منظر لا يمكن إضاعته في هذا المكان أبداً..

وفي الصالة ذات الإطلالة الزجاجية الواسعة، جلس الجميع يراقبون الشمس وهي تتلمس طريقها نحو الأفق وترسل ضياءها الأحمر الحزين فوق سطح البحيرة الهادئة، وبين صمت الجميع لحظات قال الدكتور جورج سائلاً:

– أستاذ هشام.. ما معنى اسم الفرعون سنفرو؟

فوجيء هشام بسؤال الدكتور جورج، لكنه لم يتأخر بالإجابة قائلاً:

– يتكوّن اسم الفرعون سنفرو من ثلاثة مقاطع؛ (اس–نفر–و) ومعناها: سيجعلني جميلاً.. أوشيء قريب من هذا..

فابتسم الدكتور جورج وقال:

– فمعناه إذن: (الموعود بالحسن).. أليس كذلك؟

تأمّل هشام لحظة ثم قال:

– نعم.. نعم.. إنه كذلك..

ثم صمت قليلاً، وانتبه فقال:

– لكن.. مهلاً.. أليست هذه نفس العبارة التي قالتها آسيـ..

قطع هشام كلامه، ثم نظر الجميع نحو آسيا، التي لم تكن تستمع لهم، فقد كانت عيناها شاخصتين نحو منظر البحيرة خلف الزجاج، وحينما تنبه لها الرجال الثلاثة، نهضت فجأة من مكانها وأخذت تسير بحركة شبه آلية، وبخطى وئيدة اتجهت صوب الباب المؤدي إلى الصعيد الرملي الممتد خلف الإطلالة الزجاجية.

أسرع الدكتور شعبان لمحاولة إيقافها وصاح:

– مهلاً يا آسيا..

فأمسك الدكتور جورج يده بقوة وقال بصوت خفيض:

– انتظر.. لا تشوّش ذاكرتها.. لنتبعها..

وبالفعل سار الثلاثة خلفها، وهي تخرج بهدوء وتسير فوق الرمال متجهة صوب شاطيء البحيرة، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صوت بكاء طفل بالقرب

من الشاطيء، وأخذت عينا آسيا تجولان في المكان، حتى بلغت حفرة نبت فيها البردي بكثافة، وأخذت تبحث بين أعواده بكلتا يديها، وقد أصبح صوت بكاء الطفل أعلى، ثم فجأة لاح بين القصيبات طفل صغير قد علقت قدماه في الطين، وما إن رأته آسيا حتى صرخت: «ابن الماء» وخرّت مغشيّاً عليها.

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل الثامن

(١٧)

قبل ٢٥ سنة:

وصلت الدكتورة مريم والدكتور شعبان والدكتور جورج بصحبة مجموعة كبيرة من الرجال الأشداء إلى قبرص، بعد يوم كامل من السفر سلكوا فيه طريقاً بحرياً لا يسلكه غير المهرّبين واللصوص، واستقرّ بهم المقام في بيت ضخم في منطقة نائية عند أطراف نيقوسيا، يملكه السيد هاملر. وعند دخولهم له وجدوا بأن البيت قد جُهّز بكل الأجهزة اللازمة للرعاية الطبية، حتى أصبح أقرب للمشفى الصغير، فقد كان السيد هاملر يعدّه لإجراء تجربة الاستنساخ.

وأرشدهم أحد رجال الحماية هؤلاء إلى أماكن غرفهم، وأخبرهم أنهم ممنوعون من الخروج من البيت مطلقاً حسب توجيهات السيد هاملر، وأن كل ما يطلبونه سيتوفر لهم فوراً.

وطوال رحلة هروبهم هذه كانت عين الدكتور شعبان تراقب الدكتورة مريم التي بدت شاحبة الوجه ومتعبة أكثر من أي وقت مضى، وعندما استقر الجميع في هذا المنزل- المشفى، أصرّ الدكتور شعبان على فحص الدكتورة مريم فحصاً دقيقاً بالأمواج فوق الصوتية، كما أجرى لها فحوصات الدم، ولم تكن النتائج مشجعة، فقال لزميلته عندما خلا بها:

- نتائج الفحص يا دكتورة غير مشجعة أبداً.. أخشى من حدوث التهابات..

فابتسمت الدكتورة مريم لطمأنته وقالت:

– أظننا لن نعجز في علاج التهابات بسيطة يا عزيزي ونحن في هذا المشفى المتطور..

بقي الدكتور شعبان مقطب الجبين وهو يقول:

– لا أعرف.. أخشى أن نكون قد أقدمنا على أمر أكبر من قدرتنا..

فقاطعته الدكتورة مريم على الفور قائلة:

– لا تخف.. لا تخف.. كل شيء سيكون على ما يرام.. أنا أشعر بذلك..

صمت الدكتور شعبان، بينما بقيت هواجسه تصطخب في داخله، وعاد إلى غرفته ليرتاح بعد سلسلة الأحداث المتعبة التي مروا بها في الأيام الماضية.

وفي المساء كانت الدكتورة مريم والدكتور شعبان والدكتور جورج يجلسون في صالة البيت الكبيرة التي تطلّ على حديقة جميلة، وقد بدت الدكتورة مريم في حال أفضل، مما رسم أخيراً ابتسامة خفيفة على وجه الدكتور شعبان، فاستغل الدكتور جورج هذا الجو المفعم بالإيجابية ليقول:

– والآن أيها الكريمان.. حان وقت قيامكما بتنفيذ الجزء الخاص بي من الاتفاق..

فسألته الدكتورة مريم:

– أيّ جزء يا دكتور؟ لقد قمنا بتجربة الاستنساخ.. ونحن ننتظر نتيجتها..

فابتسم الدكتور جورج ابتسامته الصفراء قائلاً:

– ليس هذا يا دكتورة.. لقد اتفقت معكما أن أساعدكما في إنجاز البحث وتساعداني بالمقابل في تجربة استنساخ أخرى.. هل تذكران؟

فقال الدكتور شعبان فوراً:

– علينا أولاً أن نطمئن على نجاح تجربتنا قبل العمل على تجربة أخرى..

فقاطعه الدكتور جورج وهو ما يزال مبتسماً:

– لم يكن هذا اتفاقنا يا عزيزي..

تدخلت الدكتورة مريم قائلة:

– وما الذي تريد تجربة استنساخه يا دكتور؟

فاعتدل الدكتور جورج في جلسته، ثم قال:

– حسناً.. عندي قطعة أثرية قديمة، وأرغب في البحث عن خلية فيها لغرض تجربة استنساخها، مثلما فعلتم مع المومياء..

فضحك الدكتور شعبان قائلاً:

– وما الذي يؤكّد لك أن الخلايا البشرية على قطعتك الأثرية ما تزال موجودة؟

فقال الدكتور جورج بهدوء:

– أنا متأكد من ذلك، فلا تسألني كيف..

وعندما أراد الدكتور شعبان أن يتكلم، غمزت له الدكتورة مريم، ثم قالت:

– وأين هي القطعة الأثرية؟ أرنا إياها لنرى إن كان من الممكن أن تحتفظ بأي أثر بشري عليها..

فقال الدكتور جورج في هدوء:

– لا يا عزيزتي.. ليس بهذه البساطة.. متى ما كنتما على استعداد لإجراء التجربة.. أخرجت لكما القطعة لتقوما بالتجربة فوراً..

لم يكد الدكتور جورج يكمل عبارته حتى صاحت الدكتورة مريم بتوجع وهي تمسك بطنها، فنهض الدكتور شعبان فوراً وهو يقول:

– ما الذي حصل يا دكتورة؟ هل أنت بخير؟ ما الأمر؟

بقيت الدكتورة مريم ممسكة بطنها وهي تقول:

– لا بأس يا دكتور.. أشعر بوخزة أسفل البطن فقط.. ساعدني على الذهاب إلى غرفتي..

وساعدها الدكتور شعبان لتصل إلى غرفتها حيث تمدّدت في سريرها، وقال لها:

– سأجري لك فحصاً بالأمواج فوق الصوتية..

فقاطعته الدكتورة مريم قائلة:

– لا داعي لذلك دكتور.. أنا بخير الآن..

فقال لها وهو يهمّ بالخروج من الغرفة:

– طيب.. ارتاحي الآن، وفي الصباح نجري فحصاً شاملاً..

وقبل أن يخرج استوقفته الدكتورة مريم قائلة:

– أنا أعرف أين يخفي الدكتور جورج قطعته الأثرية التي يريد استنساخ الآثار البشرية عليها..

نظر لها الدكتور شعبان باستغراب ولم يتكلم بشيء، فعقّبت:

– إنه يخفيها في عصاه..

***

(١٨)

بعد ٢٥ سنة:

وضع السكرتير الأسمر الضخم كيفن آسيا على الأريكة في الصالة، بينما أخذت خادمة العزبة ابنها الذي كان يلعب على الشاطيء قبل أن تعلق قدمه في الطين، وأخذ الدكتور شعبان يحاول إيقاظ آسيا من إغماءتها بلهفة، دون جدوى، وهو يراقب شحوب وجهها، وتسارع ضربات قلبها، فقام بوضع محلول وريدي لها بعد أن أضاف له دواءً مهدئاً، وبقي يراقب نبضات القلب حتى اطمأن أخيراً، فسأله الدكتور هشام:

– هل هي بخير يا دكتور؟

فابتسم الدكتور شعبان تقديراً للهفة الأستاذ هشام وقال له:

– لا تخف يا بني.. هي بخير الآن، وهي نائمة بتأثير الدواء المهديء..

فشعر هشام بالارتياح أخيراً، وخرج ليتفقد ابن خادمة العزبة.

وفي هذه الأثناء، كان الدكتور جورج يراقب الموقف بعينيه فحسب، بينما ذهب خياله إلى أعماق التاريخ جيئة وذهاباً، وكان عقله يشهد معركة حامية الوطيس واضطراباً لم يحصل له من قبل، وهو يسأل نفسه سؤالاً متكرراً دون جواب: «كيف يمكن للأميرة ميريتيتيس أن تتحدّث عن ابن الماء؟».

نظر الدكتور شعبان نحو الدكتور جورج الذي كان غارقاً في تأملاته، فقال له:

– والآن ماذا يا جورج؟ ما تفسير هذه الكلمة؟ من هو ابن الماء؟ هل هناك فرعون آخر بهذا الاسم؟

فقال الدكتور جورج بهدوء:

– ابن الماء ليس فرعوناً.. إنه شخص واحد فقط.. إنه النبي موسى..

نظر الدكتور شعبان باستغراب نحو الدكتور جورج وقال:

– ما الذي تتحدث عنه؟ ما علاقة النبي موسى بالملكة ميريتيتيس؟ لابدّ أن معلومة ما فاتتك..

فقال الدكتور جورج بثقة:

– بلى يا عزيزي.. أنا متأكد من كلامي.. كلمة (موسى) في اللغة المصرية القديمة تتكوّن من مقطعين (مو–سي) وتعني ابن الماء.. وهذا ما أوهم عدداً من الباحثين إلى القول بأن النبي موسى مصري لا عبراني..

فقال الدكتور شعبان:

– ولكنّ جميع الباحثين يربطون النبي موسى بعصر الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة.. والتي جاءت بعد عصر الأسرة الرابعة، أسرة الملكة ميريتيتيس، بألف وثلاثمائة سنة.. فما علاقة النبي موسى بها؟

بقي الدكتور جورج واجماً لا يملك إجابة على أسئلة الدكتور شعبان، وفي هذه الأثناء عاد الأستاذ هشام، فقال له الدكتور شعبان فوراً:

– هل تعلم يا أستاذ هشام أي علاقة بين النبي موسى، والأسرة الفرعونية الرابعة؟

فاستغرب الأستاذ هشام لهذا السؤال في هذا الوقت تحديداً، لكنه قال:

– من الممكن أن يكون النبي موسى قد عاصر أحد فراعنة الأسرة الرابعة..

فنظر العجوزان نحوه، وهما يطلبان المزيد من التوضيح، فقال معقّباً:

– في الحقيقة أنا مهتم منذ سنوات بإجراء مقاربات بين الأحداث التاريخية المهمة والسرد القرآني، وقد توصلت إلى أمور في غاية الأهمية، منها ما يتعلق بقصة الفرعون الذي عاصر النبي موسى..

اعتدل الدكتور جورج في جلسته قائلاً:

– ولكن يا بني.. أليست قصص القرآن حول النبي موسى هي تكرار لما جاء في العهد القديم؟

فابتسم الأستاذ هشام لهذا السؤال الذي بدا مستعداً له ثم قال:

– أبداً يا دكتور.. وسأبين لك بعض الاختلافات بين سرد القرآن وسرد العهد القديم..

بدا الدكتور جورج والدكتور شعبان في غاية الانتباه وهما يستمعان لمحاضرة هذا الشاب الذي أكمل كلامه قائلاً:

– قد يبدو الإطار العام لقصة النبي موسى في العهد القديم والقرآن متشابهاً، لكن في الحقيقة ثمة اختلافات كثيرة بين القصتين، ففي العهد القديم تفاصيل كثيرة لم يرد ذكرها في القرآن، والعكس صحيح كذلك، ففي القرآن ذكر للصرح الذي طلب فرعون من هامان بناءه له ليطلع إلى إله موسى، ولم يذكر العهد القديم ذلك، ولا ذكر هامان أصلاً.. وفي العهد القديم أسماء وأنساب بني إسرائيل وليس في القرآن شيء من ذلك.. في الحقيقة لو تتبعنا القصة خطوة خطوة، لوجدنا اختلافات كثيرة..

فقال الدكتور جورج مقاطعاً:

– أنا لا أحب إقحام النصوص الدينية بصفتها المقدسة في بحوثي التاريخية، بل أكتفي بأخذ الإطار العام وأهم ملامح القصة التاريخية المذكورة في النص

الديني من دون أن أجزم بكونها هي الأصل للأسطورة أم أنها إعادة صياغة لها..

فقال الأستاذ هشام مقاطعاً:

– أما نحن المؤمنين يا دكتور فننطلق من مصداقية النص الديني.. مع التمييز بين هذه النصوص.. فنص العهد القديم ليس كنص القرآن.. لاختلاف ثبوت كل منهما، فنص العهد القديم كتب في وقت متأخر جداً عن عصر النبي موسى.. بينما حفظ القرآن في قلوب الناس، وتناقلته الألسن، ثم إنه كُتب في وقت مبكر جداً في عصر النبي محمد.. لذلك نحن كباحثين تاريخيين مؤمنين نتعامل مع النصوص الدينية على النحو التالي..

أولاً: نصدق النص القرآني تماماً..

ثانياً: نقدم النص القرآني على نص العهد القديم عند الاختلاف..

ثالثاً: نقبل نص العهد القديم اذا تفرّد بمعلومة غير مذكورة في القرآن، ولم تخالف حقيقة تاريخية..

سكت الدكتور جورج للحظة ثم قال:

– على أية حال.. أنا مضطر لقبول منهجك هذا لأن «ابن الماء» شخصية غير موجودة إلا في النصوص الدينية.. وإن شئنا تتبع خطواته فلا بد من تصديق النص الديني.. لكنني شخصياً سأخضعه للاختبار التاريخي..

فأكمل الأستاذ هشام:

– وأنا معك يا دكتور..

فقال الدكتور جورج:

– والآن اشرح لنا.. كيف يمكن أن يكون النبي موسى قد عاصر أحد فراعنة الأسرة الرابعة؟

فقال الأستاذ هشام:

– من ينطلق من مصداقية التوراة أو العهد القديم لا يمكنه افتراض أي احتمال لكون الفرعون الذي عاصر موسى هو من غير الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة، لأن تسلسل الأحداث مذكورة بتفاصيل متواصلة وصولاً للأنبياء القريبين من ميلاد المسيح، ومروراً بالنبي سليمان الملك الذي يمكن تحديد تاريخ مملكته بشيء من الدقة.. لذلك يفترض جميع الباحثين أن الفرعون الذي عاصر النبي موسى هو رمسيس الثاني، أو ابنه على أبعد تقدير..

تنهّد الأستاذ هشام قبل أن يطرح رؤيته الخاصة حول الموضوع، فقال:

– بينما الذي أتصوره أنا أنّ الفرعون الذي عاصر النبي موسى أقدم من ذلك بكثير، وأنّ ثمة اختصاراً كبيراً للأزمنة في تسلسل الأحداث الوارد في العهد القديم.. وربما يكون الفرعون المقصود من الأسرة الرابعة.. لمَ لا؟

فقاطعه الدكتور جورج قائلاً:

– لكن كيف بنيت تصوّرك هذا؟

فقال الأستاذ هشام:

– وصف القرآن فرعون بصفة «فرعون ذي الأوتاد»، وأظن أن الأوتاد هي الأهرام..

قاطعه الدكتور شعبان عند هذه النقطة قائلاً:

– كيف تكون الأوتاد بمعنى الأهرام؟

فقال الأستاذ هشام:

– الأوتاد في القرآن تأتي وصفاً للجبال، أما الأهرامات فكانت تسمى بتسميات مختلفة حسب الغرض من بنائها، إلا أن الزقّورات السومرية في حضارة بلاد الرافدين، وهي كما تعلمان أهرام مدرّجة، وهي أصل الأهرامات أو مقتبسة عنها، أوحت لي بهذا المعنى، فهل تعلمان معنى كلمة «زقّورة»؟

بقي الدكتور جورج والدكتور شعبان صامتين بانتظار الجواب، حينها سمع الجميع صوتاً ملائكياً رقيقاً، هو صوت آسيا وقد فتحت عينيها مبتسمة لتقول:

– الزقّورة هي الجبل المقدس..

***

الفصل التاسع

(١٩)

قبل ٢٥ سنة:

لم يعد القلق والخوف يفارقان الدكتور شعبان بعد مضي ثلاثة أشهر في بيت السيد هاملر في قبرص، منذ أن تبين له وجود علامات التهابات كيمياوية غريبة لدى الدكتورة مريم، توشك أن تتحول إلى تسمم دم، على الرغم من تقدم الحمل بصورة طبيعية، وقد شرحت الدكتورة مريم له أسباب هذا الالتهاب الكيمياوي قائلة:

– نحن أحضرنا خلية من جسد بشري يعود لزمن قديم وزرعناها في جسد بشري لزمن آخر، ولكل زمن تراكيبه الخاصة وجراثيمه، فلا شك أن الخلية المزروعة نقلت مادة أو جرثومة لا تعرفها أجسادنا في زماننا هذا..

فقال الدكتور شعبان:

– سأحاول السيطرة عليها بأية وسيلة..

فردت الدكتورة مريم لرفع الروح المعنوية لزميلها:

– نعم.. نعم.. ستصل لنتيجة حتماً..

ثم أردفت قاصدة تغيير الموضوع:

– هل توصلت إلى شيء بخصوص القطعة الأثرية التي يخفيها الدكتور جورج في عصاه؟

تذكر الدكتور شعبان أمر القطعة الأثرية فقال:

– أنت تعلمين كم هو متمسك بعصاه ولا يكاد يتركها حتى في نومه، ولا أدري كيف تركها ذلك اليوم في السيارة حين قمت بفحصها..

فقالت الدكتور مريم وهي تتذكر ذلك:

– لقد كنتما مشغولين مع العصابة في الحفر داخل الهرم بينما كنت أنا أنتظركم داخل السيارة عندما لاحت لي عصا الدكتور جورج التي أخفاها في السيارة عمداً ذلك اليوم خشية أن يلحق بها ضرر ما، وقد امتلكت الوقت الكافي لتفحص العصا بدقة، لأنني كلما رأيتها أدركت أن وراءها سراً ما، وقد وجدت فعلاً فتحة صغيرة في أسفل قاعدتها على شكل زهرة صغيرة جداً، وأظنها مدخل لمفتاح ما، يمكن أن يفتح العصا..

فقال الدكتور شعبان وهو غارق في التأمل:

– ولكن! ما هي القطعة التي يحرص عليها الدكتور جورج إلى الحد الذي يجعلها بين يديه طوال الوقت؟ ويظن أن عليها خلايا بشرية قديمة، تجعله يخاطر بحياته لأجل محاولة استنساخها؟

فقالت الدكتورة مريم مؤيدة له:

– لا بدّ أنها قطعة مهمة للغاية، بل أهم قطعة أثرية على الإطلاق..

وبعد بضعة أيام، كان الدكتور شعبان جالساً بجوار سرير الدكتورة مريم التي نامت بهدوء وطمأنينة، وبقي هو يتأمل في وجهها الجميل الهادىء القسمات، الذي ازداد شحوباً خلال الأشهر الماضية إلا أنه ما يزال محتفظاً برونقه وبهائه.

لقد أدرك الدكتور شعبان وهو يتأمل وجهها أنه يحبّ هذه المرأة حباً عظيماً، إلا أنه لا يحسن التعبير عنه، ويخشى أن يبوح به، حبّ صامت تكشفه كلّ حركة يقوم بها، وكلّ نظرة ينظر بها نحو حبيبته.

وبينما هو غارق في تأملاته، سمع فجأة أصواتاً مرتفعة تأتي من مقدمة المنزل، فنهض ليرى ما يجري عبر نافذة الغرفة، وإذا به يرى الدكتور جورج يتشاجر مع أحد الحراس الضخام الذي بدا كأنه قد منعه من الخروج، وقد كان منظر الرجلين المتفاوتين في الحجم كثيراً مثيراً للضحك، فبمجرد دفعة بسيطة دفعها الحارس الضخم على صدر خصمه جعلته يتراجع متقهقراً بسرعة قبل أن يسقط أرضاً مثل كرة لعب صغيرة، وأمسك الدكتور جورج رأسه فوراً، ثم بدا وكأنه قد فقد الوعي، فاندفع الدكتور شعبان ليهبط بسرعة إلى الطابق الأرضي حيث قابله الحراس وهم يحملون الدكتور جورج نحو غرفته، ووضعوه على سريره ثم نادوا فوراً على الدكتور شعبان ليقوم بإسعافه.

أخذ الدكتور شعبان يتفحص رأس الدكتور جورج بهدوء، فوجد جرحاً صغيراً في مؤخرة رأسه، وبدا أنه تعرض لارتجاج دماغي خفيف وسرعان ما سيكون على ما يرام، وفي تلك اللحظات دخل أحد الحراس حاملاً عصا الدكتور جورج التي سقطت منه قرب مدخل البيت، ووضعها بلا اكتراث قرب السرير وخرج، بينما كان الدكتور شعبان يفتح ربطة عنق الدكتور جورج ليسمح له بالتنفس بحرية، فبدت له فوراً قلادة ذهبية صغيرة تدلّى منها مفتاح صغير جداً ذو رأس يشبه زهرة صغيرة.

نظر الدكتور شعبان نحو العصا السوداء الغريبة، فراودته نفسه لإلقاء نظرة، نظرة واحدة فحسب، يرى فيها القطعة الأثرية المهمة التي يحملها هذا الباحث الآثاري المهم بين يديه حيثما حلّ وارتحل، ولكن ضميره يأبى عليه استغلال لحظة ضعف الرجل ليقتحم خصوصيته، وبعد لحظات من الصراع، تغلب فضوله على ضميره، فاستخرج المفتاح من سلسلة القلادة، وأخذ يبحث أسفل العصا عن الفتحة التي تكلمت عنها مريم، وبالفعل وجد فتحة صغيرة على

شكل زهرة، فأدخل فيها المفتاح، وحالما بلغ عمقاً معيناً انجذب تلقائياً نحو الداخل، لتصدر العصا صوتاً وينفتح جانب منها طولياً.

وقام بعدها الدكتور شعبان بفتح العصا بهدوء وقد أخذ الفضول منه كل عقله، حتى انفتحت بشكل تام، ليبدو التجويف في داخلها مليئاً بقطن ناعم جداً، وحينما بدأ بإزالة جزء منه بدت له القطعة الأثرية، وهي عصا خشبية قديمة، صفراء اللون، وقد اسودّت بعض حدودها، وقد حرص الدكتور جورج على إحاطتها بقطن ناعم، ثم أسندها بقطع جلدية سميكة لمنع احتكاكها بالعصا الخارجية التي تحيط بها أثناء الحركة.

وعندما بدأ الدكتور شعبان بمحاولة إزالة القطن عن كامل العصا الأثرية، شعر بأن الدكتور جورج قد بدأ يحرك أصابعه، وسيستعيد وعيه بعد قليل، فأعاد القطن إلى موضعه، وأغلق العصا الخارجية السوداء حتى سمع صوت الإغلاق، فاندفع المفتاح خارجاً من مكانه، وأعاده الدكتور شعبان بهدوء في قلادة الدكتور جورج.

وما إن فتح الدكتور جورج عينيه ورأى الدكتور شعبان أمامه، حتى التفت بسرعة نحو العصا، وعندما أبصرها بجواره، هدأ وأرخى رأسه على الوسادة، فقال له الدكتور شعبان:

– هل أنت بخير يا دكتور؟

فابتسم الدكتور جورج وقال مازحاً:

– تمنيت لو أنك كنت موجوداً لتراني وأنا ألقّن هؤلاء العجول درساً قاسياً..

فضحك الرجلان، ونهض الدكتور شعبان بعد أن ضمّد جرح رأسه، وقبل أن يستدير للخروج من الغرفة، ناداه الدكتور جورج قائلاً:

– دكتور شعبان.. لقد اتخذت قراراً بأن نهرب جميعاً من هذا البيت..

(٢٠)

بعد ٢٥ سنة:

عندما استفاقت آسيا من غيبوبتها بشكل تام، حكت للرجال الثلاثة الرؤيا التي صاحبت منظر ابن الماء، فقالت:

– رأيت هذه المرة امرأتين.. شاحبتي الوجه.. جميلتين.. لا أعرف أي واحدة منهما وهما يعرفانني.. كلتاهما اسمهما مريم.. وقفتا مع بعضهما تنظران إلي وتبتسمان..

اغرورقت عينا الدكتور شعبان بالدموع، ولم يتمالك نفسه، فخرج نحو الحديقة ليتنفس هواء الليل العليل، بينما كان الدكتور جورج غارقاً في تأملاته وصمته قبل أن تقطع عليه آسيا صمته قائلة:

– هل قلت شيئاً أزعج أبي يا دكتور؟

تنبّه الدكتور جورج فنظر نحوها وقال:

– لا.. لا.. لقد تذكّر فقط زوجته.. فقد كان اسمها الدكتورة مريم..

فتحت آسيا عينيها دهشة، ونظرت نحو الأستاذ هشام الذي كان مندهشاً أكثر منها، فسألت الدكتور جورج مرة أخرى:

– هل اسم أمي مريم؟ وهل كانت دكتورة؟..

فانتبه الدكتور جورج أنه قد باح لها بشيء لا تعلمه، وخشي أن يغضب ذلك الدكتور شعبان، لكن نظرات آسيا وعيناها المتوسّلتان لم تمكّناه من كتم الإجابة فقال:

– نعم.. نعم.. الدكتورة مريم عبد السلام..

ثم نهض فوراً هرباً من المزيد من الأسئلة وقال:

– سأخرج لأعيد الدكتور شعبان لتشرحي لنا المزيد عن الزقّورات..

وغادر فوراً، بينما بقيت آسيا وهشام يتبادلان نظرات الدهشة والفرح، فقال هشام:

– ها قد عرفت إجابة أحد أسئلتك..

فقالت وهي تتذكر:

– يبدو أن لدى الدكتور جورج المزيد من الإجابات..

في الخارج وقف الدكتور شعبان يستنشق هواء الليل، عندما دنا منه الدكتور جورج وقال:

– هل أنت بخير يا صديقي؟

فأجاب الدكتور شعبان:

– هل تظن أنها هي نفسها التي رأتها؟ لقد كانت شاحبة الوجه فعلاً في آخر أيامها..

فقال الدكتور جورج:

– ممكن جداً..

فعاد الدكتور شعبان ليسأل:

– ومن هي المرأة الثانية؟

صمت الدكتور جورج لحظة ثم قال:

– إن كانت صورة «ابن الماء» موسى قد ومضت في ذاكرتها الوراثية، فربما تكون «مريم» هي أخته التي تكفلت بإرضاعه لدى أمها العبرانية..

التفت الدكتور شعبان نحو الدكتور جورج متعجباً، فعاد الدكتور جورج ليقول:

– لا تعجب يا صديقي.. وهلم نستمع لمحاضرة آسيا عن الزقورات..

بينما جلست آسيا تلقي للرجال الثلاثة محاضرتها عن الزقّورات السومرية والأكدية، كان كل واحد منهم يستمع لها بشكل مختلف؛ فقد كان الدكتور شعبان ينظر لوجهها الذي بدا أكثر شحوباً من المرتين السابقتين اللتين أغمي عليها فيهما، ورغم أن ابتسامتها الرقيقة الهادئة لم تفارق محيّاها وهي تلقي بشغف معلوماتها المهمة عن تاريخ وادي الرافدين، إلا أن عيني أبيها كانتا تنظران إلى نشاطها وصحتها فحسب. وأمّا الأستاذ هشام فقد ملأت الابتسامة وجهه، وهو ينظر لهذا الملاك الرقيق، وقد ملأ جمالها روحه، فلم يعد يشكّ لحظة واحدة بأنه عاشق ولهان، وأنّ هذه الشابة قد امتلكت زمام قلبه بيديها الرقيقتين الناعمتين.

وحده الدكتور جورج الذي كان يستمع لمحاضرة هذه الشابة، استماع طالب العلم، والباحث عن المعلومة، وكان عقله يربط المعلومات وينسجها في نسيج متكامل لتكوين فرضية تاريخية قابلة للاختبار، وقد انتبه لها وهي تقول:

– في أعلى الزقورة يبني السومريون بالعادة معبداً ليكونوا أقرب إلى السماء، ولذلك أطلقوا على بنائهم هذا لقب الزقورة، أي المكان المرتفع أو الجبل المقدّس.. لكنني لا أفهم ما الذي جعلكم تتناقشون حول الزقورات ونحن في بلاد الأهرامات؟

فبادر الأستاذ هشام بالإجابة قائلاً:

– كنا نريد فهم كلمة قرآنية تصف الفرعون الذي عاصر موسى بأنه «ذو الأوتاد»، فكنت أقول بأن الأوتاد هي الجبال، والأهرامات هي بناء هندسي بشري غرضه مضاهاة الجبال.. فالأهرام هي الأوتاد باستعارة المعنى الحرفي للزقورة حسب ما أظن..

فقالت آسيا مبتسمة:

– يبدو أنه قد فاتني الكثير وأنا نائمة..

فأجابها الدكتور شعبان:

– لا بأس يا أميرة.. أنت بخير الآن..

قام الدكتور جورج من مقعده، ووجّه كلامه للأستاذ هشام قائلاً:

– أفهم منك يا أستاذ هشام أنك ترجح أن «فرعون موسى» كان من بناة الأهرام.. أي في فترة الألف عام الممتدة من ٢٦٠٠-١٦٠٠ قبل الميلاد هل هذا صحيح؟

فقال الأستاذ هشام معقباً:

– هذا صحيح يا دكتور.. غير أن أوّل الأهرامات، وأعظمها كانت في الأسرة الثالثة والرابعة.. وحين نبحث عن فرعون يوصف بأنه ذو الأهرامات فمن الطبيعي أن يكون من هاتين الأسرتين..

في هذه اللحظة تدخّل الدكتور شعبان قائلاً:

– هل يمكن أن يكون النبي موسى قد عاصر فعلاً فرعوناً قديماً من الأسرة الثالثة أو الرابعة؟

فبادر الدكتور جورج بالإجابة قائلاً:

– غير ممكن.. فالباحثون في العهد القديم يعتقدون أن النبي يوسف كان معاصراً لزمن الهكسوس، قبل ١٥٠٠ عام من ميلاد المسيح، فبهذا يكون عصر النبي موسى بحدود ١١٠٠–١٢٠٠ قبل الميلاد..

فقاطعهم الأستاذ هشام قائلاً:

– هذه التفاصيل في العهد القديم لا يمكن الوثوق بصحتها يا دكتور.. فهي غير منطقية في غالب الأحوال.. فمن جهة لا يمكن الجزم بأن النبي يوسف قد عاصر الهكسوس.. لا دليل تاريخي على ذلك.. ومن جهة أخرى فإنه لا يوجد في علم الآثار أي دليل يمكن الاستدلال به على حركة بني إسرائيل في مصر.. كل الاحتمالات مفتوحة..

فبادر الدكتور شعبان بالسؤال:

– ولكني قرأت مرة فيما أذكر عن لوحة مرنبتاح الفرعون المصري من الأسرة الثامنة عشرة، وأن فيها ذكر لشعب إسرائيل..

فأجاب الأستاذ هشام:

– في الحقيقة.. إن هذه اللوحة لا تذكر شعب إسرائيل بدقة.. هي لوحة من الجرانيت كتبت فيها انتصارات الفرعون مرنبتاح على الليبيين والذي حكم للفترة من ١٢١٣–١٢٠٣، وفي أسطرها الثلاثة الأخيرة تذكر انتصارات الفرعون على الشعوب الكنعانية ومنها شعب «يزريآر» والذي اعتبره بعض الباحثين دليلاً على إسرائيل.. وهذا تكلف واضح فيما أظن.. إنها محاولات غير محايدة لقبول التسلسل التاريخي لأحداث العهد القديم..

سكت الجميع، وسادت فترة من الصمت قطعها الدكتور جورج قائلاً:

– كلامك منطقي يا أستاذ هشام.. لا يمكنني إلا قبول هذا المنهج العلمي الدقيق والرائع..

كان الأستاذ هشام يشعر بالسعادة وهو يرى الدكتور جورج يوافقه على منهجه، واسترق في تلك اللحظة النظر نحو آسيا التي بدت أسعد منه.

كان الدكتور جورج يقول لنفسه في تلك اللحظة: «سأسير معكم على خطوات ابن الماء حتى أصل إليه..»

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل العاشر

(٢١)

قبل ٢٥ سنة:

تمكّن الدكتور جورج من إقناع السيد هاملر بضرورة خروجه من المنزل للتواصل مع السفارة الأمريكية قبل أن تثار قضية إعلامية عن اختفائه المفاجيء، واقتنع السيد هاملر بكلامه بعد أن أخبره أنّه لن يغادر المكان قبل الحصول على الجزء المتعلق به من الاتفاق، وهو إجراء تجربة استنساخ أخرى لمصلحته.

وبعد أن قضى الدكتور جورج ثلاث ساعات في السفارة، خرج ليجد رجال السيد هاملر بانتظاره للعودة نحو البيت مجدداً، حيث همس في أذن الدكتور شعبان بأنّ كل شيء على ما يرام.

وفي ظهيرة ذلك اليوم كان الدكتور شعبان يجري الفحص الروتيني لزميلته التي أصبح وضعها يزداد تعقيداً وهي في الشهر السادس من الحمل، وحرص الدكتور شعبان على إعطائها الأدوية في وقتها، وبينما كان يراقب قطرات المحلول الوريدي وهي تتلاحق تباعاً، بادرته الدكتورة مريم قائلة:

– ليكن اسمها آسيا..

فوجيء الدكتور شعبان بقول زميلته، ونظر نحوها بحنو وقال:

– من هي يا عزيزتي؟

فقالت الدكتورة مريم بصوت ضعيف:

– ابنتي التي تسكن أحشائي.. عندما تولد.. ليكن اسمها آسيا..

فتبسم الدكتور شعبان وقال:

– ولكن.. لماذا هذا الاسم تحديداً..

فقالت الدكتورة مريم:

– لا أعرف.. هكذا رأيت في الرؤيا صباح هذا اليوم..

فقال الدكتور شعبان:

– وما تفاصيل هذه الرؤيا..

فقالت الدكتورة مريم:

– لا تفاصيل.. إنما هو صوت سمعته يقول: إن اسم ابنتك آسيا.. فقط..

فتبسم الدكتور شعبان ليشعرها بالطمأنينة:

– طيب.. طيب.. اسم جميل..

وفي تلك اللحظة اغرورقت عينا الدكتورة مريم بالدموع وقالت:

– لقد أتعبتك معي كثيراً.. أنت أجمل وأنقى شيء عرفته في حياتي..

شعر الدكتور شعبان بموجة غامرة من السعادة تفيض على روحه، فقال لها:

– وأنا اليوم كذلك أسعد إنسان على وجه الأرض بسماع هذه الكلمات الجميلة منك..

قام بعدها ليغلق المحلول الوريدي، ثم نظر لها وقد أغمضت عينيها المتعبتين، فترك الغرفة خارجاً على مهل، ونزل إلى صالة المنزل حيث وجد الدكتور جورج، وسأله بعد أن اطمأن لعدم وجود أشخاص آخرين:

– ماذا قصدت عندما قلت إن كل شيء على ما يرام؟

فقال الدكتور جورج وقد عادت الابتسامة الصفراء الباهتة لترتسم على وجهه:

– لقد دبّرت خطة الهروب يا عزيزي..

فانتبه الدكتور شعبان وقال وهو يتلفت يميناً ويساراً:

– كيف؟ ومتى؟

فقال الدكتور جورج بصوت منخفض:

– بعد يومين.. لقد رتبت كل شيء.. ستنتظرنا سيارة خاصة قرب البيت.. ما علينا سوى الخروج من البيت عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل.. وبعد ذلك سيكون كل شيء معداً..

فقاطعه الدكتور شعبان قائلاً:

– وكيف نخرج من البيت وهو مليء بالحراس؟

فابتسم الدكتور جورج قائلاً:

– ستُلقى حبال على سور البيت، لنتسلقها ثم نقفز إلى الخارج..

فغضب الدكتور شعبان وقال:

– وكيف تتصور أن تتمكن الدكتورة مريم من القفز فوق السور يا رجل؟

فقال الدكتور جورج:

– سنساعدها نحن أيضاً.. هي قفزة واحدة فقط.. وسنصبح جميعاً أحراراً.. لقد رتبت كل شيء..

لم يشعر الدكتور شعبان بالارتياح إزاء هذه الخطة المجهولة العواقب، فعاد إلى غرفة الدكتورة مريم، حيث وجدها مستيقظة، فجلس عندها وأخبرها بخطة الدكتور جورج، فابتسمت له وقالت:

– أنا موافقة..

فسألها الدكتور شعبان:

– كيف؟ هل تستطيعين القفز فوق السور المرتفع وأنت بهذه الحالة؟

فطمأنته قائلة:

– نعم نعم.. أستطيع ذلك..

لم يكن الدكتور شعبان ليقتنع بسهولة، ولكنه قرر المحاولة.

وبعد يومين، وعند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، خرج الدكتور شعبان من غرفته بهدوء ليجد الدكتور جورج بانتظاره، بينما لم تخرج الدكتورة مريم بعد من غرفتها، فذهب إليها ليستعجلها، وطرق طرقات خفيفة على الباب، ثم دخل ليجدها على سريرها، فقال معاتباً:

– ألم تتهيئي بعد يا دكتورة؟

فابتسمت له وقالت:

– أنا لا أستطيع الذهاب معكما يا دكتور.. وأرجو منك أن تصاحب الدكتور جورج.. أرجوك اهرب معه واتركني.. سأكون بخير..

فشعر الدكتور شعبان بحزن عميق، وابتسم لها ثم قال:

– أنت تضحين بنفسك لأجلي.. لا بأس.. إلى اللقاء..

وفور خروجه من الغرفة انهمرت الدموع فوق خدي الدكتورة مريم، فقد شعرت بأن جزءاً من روحها يغادرها ليترك لها جسداً عليلاً وضعيفاً بمواجهة مصير مجهول.

وعند الصباح، فتحت الدكتورة مريم عينيها لترى الدكتور شعبان جالساً بجوارها يراقب حركة المحلول الوريدي، فبقيت تنظر نحوه بتعجب، فقال لها:

– لن تتخلصي مني بهذه السهولة يا دكتورة.. أنا باق معك حتى نعود سوية..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(٢٢)

بعد ٢٥ سنة:

انطلق السيد كيفن سكرتير الدكتور جورج مسرعاً بسيارة الكرفان في وقت مبكر من صباح اليوم التالي بعد أن اتفق الجميع على أن يخصصوا اليوم لزيارة مجمع أهرامات سقارة، وهي المنطقة الواقعة بين القاهرة والفيوم، حيث بات فريق الباحثين ليلتهم في العزبة.

وفي الطريق كان الأستاذ هشام يشرح للآخرين عن مجمع أهرامات سقارة فقال:

– سنزور اليوم في سقّارة ثلاثة مجمعات، تعود لفترات متلاحقة، أقدمها مجمع الهرم المدرج، والذي بني في عهد الفرعون العظيم زوسر الذي حكم مصر بين عامي ٢٦٤٠ و٢٦١١ قبل الميلاد، ويظهر أنه أول أو ثاني ملوك الأسرة الفرعونية الثالثة، وهو أهم ملوك هذه الأسرة قطعاً. أما المجمع الثاني فهو للفرعون أوسركاف الذي حكم مصر بعد نحو ١٢٠ سنة من حكم زوسر ، ولكنه بنى هرمه داخل حدود مجمع الملك زوسر. والمجمع الثالث هو للفرعون أوناس آخر ملوك الأسرة الفرعونية الخامسة، والذي حكم مصر بعد زوسر بنحو ٣٠٠ عام.

قاطعته آسيا قائلة:

– يظهر أن الفرعون زوسر بقي مهاباً لفترة طويلة بعد نهاية حكمه حتى أن الفراعنة من الأسر اللاحقة كانوا يتعمدون بناء أهرامهم داخل حدود مجمعه.. أليس كذلك؟

فأجابها الأستاذ هشام:

– ملاحظة دقيقة.. نعم لقد كان الفرعون زوسر أحد أعظم فراعنة العصر القديم، ويرى بعض الباحثين أنّ فترته كانت فترة رخاء وسعادة للمصريين باستثناء سبع سنين منها، والتي حلّت بها مجاعة عامة..

فعلّق الدكتور شعبان:

– هل يحفظ تاريخ الفراعنة حقاً منذ ذلك العصر القديم حدوث مجاعة لمدة سبع سنين؟

فأجاب الأستاذ هشام:

– في الحقيقة لم يكن الأمر ممكناً لولا اكتشاف لوحة المجاعة في جزيرة سهيل بأسوان.. تلك اللوحة التي شرحت بالتفصيل حادثة المجاعة التي أصابت مصر في عهد الملك زوسر.. ورغم أن اللوحة كتبت في فترة متأخرة جداً عن عهد زوسر إلا أن الباحثين لا يشكون في أصل الحكاية، وربما تكون بعض التفاصيل مختلفة شأنها شأن أي حكاية يحدث التصرف بها..

نظر الأستاذ هشام من النافذة ثم قال:

– يبدو أننا قد وصلنا سقارة..

فنظر نحو آسيا وقال:

– سنكون بعد قليل في حضرة الملك زوسر..

أمسك الدكتور جورج عصاه وقال:

– بل سنبدأ من الموقعين الآخرين؛ أوسركاف وأوناس.. ثم نختم زيارتنا بهرم زوسر المدرّج..

تحرّكت المجموعة كما خطط لها الدكتور جورج مبتدئة من موقع هرم أوناس، الملك الذي حكم للفترة (٢٣٧٥-٢٣٤٥) قبل الميلاد، ولم يكن شكل هرمه الخارجي محتفظاً بهيئة الهرم حقيقة، إلا أن الكتابات والنقوش المرسومة في داخله كانت أجمل من شكله الخارجي، وشرح الأستاذ هشام باستفاضة ما يعرفه عن الموقع، ثم زاروا مجمع هرم أوسركاف، الذي حكم للفترة (٢٤٩٤-٢٤٨٧) قبل الميلاد، الذي بدا هرمه بوضع أفضل، وقدم الأستاذ هشام أيضاً ما يعرفه عن المكان. وفي تلك الأثناء كان الدكتور جورج والدكتور شعبان يراقبان آسيا بحذر، لكنّها لم تبدِ أي انفعال غريب تجاه الموقعين.

وانطلق الفريق نحو هرم زوسر المدرّج، فدخلوا من خلال مدخله، وخرجوا نحو الساحة الفسيحة، التي يطلّ عليها هرم الملك زوسر المدرّج، وحالما نظروا جميعاً نحو الهرم المدرج، أحسّت آسيا بدوار شديد، فلم تقوَ على الوقوف، وأمسك بها الدكتور شعبان كيلا تقع أرضاً، فاستدار الجميع خارجين بسرعة.

وبينما انطلقت السيارة مسرعة نحو الفندق، كان الدكتور شعبان يسعف ابنته، التي بدت في حال أفضل، عندها سألها الدكتور جورج بلهفة:

– ماذا رأيت عندما أصابك الدوار يا آسيا؟

فقالت آسيا:

– مرة أخرى.. رأيت صوراً مركّبة غريبة.. صورة الهرم المدرج أمامي، وقد تداخلت معها صورة رجل جميل الوجه اسمه (السلام).. يرتدي ثوباً طويلاً أبيض.. وبيده أحجار منقوشة كالأختام..

بينما صمت الجميع للحظة عادت آسيا لتقول:

– أنا أعتذر منكم.. فلقد أفسدت مجدداً جولتكم..

فقال الأستاذ هشام فوراً:

– بالعكس يا آسيا.. هذه الصور التي تشاهدينها مرتبطة بشكل وثيق بجولاتنا..

فانتبه الدكتور جورج لكلامه وقال:

– وكيف ذلك يا هشام؟

فقال الأستاذ هشام بكل ثقة:

– أنا لا أعرف الكيفية التي ترى بها آسيا هذه الرؤى والصور.. ولكنها ذات دلالة تاريخية حتماً.. وهذا الرجل جميل الوجه الذي رأته للتو.. هو إمحوتب.. باني الهرم المدرّج ومهندسه..

فأبدى الدكتور جورج مزيداً من الاهتمام وقال:

– وكيف تأكدت من ذلك؟

فأجاب الأستاذ هشام:

– لأن كلمة «إمحوتب» تعني «الذي جاء في سلام».. لكن الأمر الملفت للانتباه أن بعض الباحثين يربطون بين هذا الرجل (إمحوتب) وبين النبي يوسف..

في تلك اللحظات كان الدكتور جورج يلتقط بخفة، وبدون أن يلحظه أحد قصاصة صغيرة من السيد كيفن، ففتحها خلسة وقرأ ما فيها، ثم التفت نحو الأستاذ هشام قائلاً:

– لنعد فوراً نحو عزبة الفيوم..

فسأله الدكتور شعبان:

– لماذا لا نعود للفندق؟

فقال الدكتور جورج:

– يبدو أننا مضطرون للعمل من الفيوم..

فقال الدكتور شعبان:

– لكنّ العزبة ليست لنا لنسكنها فترة أطول..

فالتفت الدكتور جورج نحو هشام قائلاً:

– أبلغ صاحب العزبة أننا على استعداد لاستئجارها لشهر كامل بأي مبلغ يطلبه..

فوافق هشام فوراً وقد شعر بالسعادة في داخله لأنه سيقضي فترة أطول بصحبة آسيا، التي كانت سعيدة هي الأخرى بهذا القرار.

وبعد لحظات فتح الدكتور جورج شباك السيارة المسرعة وألقى منه قصاصة الورق التي كُتب فيها: «احرص على بقاء الجميع في عزبة الفيوم»

***

الفصل الحادي عشر

(٢٣)

قبل ٢٥ سنة:

فوجيء الدكتور جورج عندما رأى الدكتور شعبان يخرج من البيت نحو حديقة المنزل لوحده بدون الدكتورة مريم في الموعد المتفق عليه للهرب من المنزل، فهمس له:

– أين الدكتورة مريم؟

فقال الدكتور شعبان وهو يبتسم:

– هي لا تقوى على الحركة فضلاً عن القفز من فوق السور.. وترفض المجيء..

بقي الدكتور جورج واجماً لا يعلم ما يقول، فبادره الدكتور شعبان قائلاً:

– اذهب أنت يا دكتور.. أنا سأبقى مع الدكتورة مريم..

فقال الدكتور جورج بتوسل:

– أرجوك يا دكتور شعبان.. عليك الهرب معي.. ثم سنفكر في خطة ما لإنقاذ الدكتورة مريم.. هي ستكون بخير.. لن يجرؤ أحد على إيذائها.. صدقني..

فقال الدكتور شعبان:

– أنا لست خائفاً عليها منهم.. إنها مريضة.. ولن يعرف أحد العناية بها مثلي.. لا يمكنني تركها أبداً.. اذهب أنت يا دكتور..

لم يجد الدكتور جورج بدّاً من الاستجابة لطلب صاحبه، ولكنه وعده بأن يسعى لينقذه بأي شكل من الأشكال، قبل أن يتسلق السور باستخدام الحبل، ولم ينس أن يربط عصاه حول ظهره، ثم قفز من السور، وهرب بعيداً.

انتظر الدكتور شعبان ساعة كاملة، ثم ذهب مسرعاً نحو الحراس ليخبرهم بهرب الدكتور جورج، فاندفع الحراس باحثين عنه دون جدوى، وعندما علم السيد هاملر بذلك جنّ جنونه، لكنّه أمر بتوفير سيارة فارهة ليستخدمها الدكتور شعبان بعدما اطمأن له، ومع ذلك أمر بعدم خروج الدكتورة مريم من البيت مهما حصل.

صار الدكتور شعبان قادراً على الخروج من البيت متى شاء، لكنّه كان مقتصداً جداً في حركته، وقلما يبتعد عن الدكتورة مريم التي أصبحت في حالة يرثى لها، ومع بلوغ الحمل شهره الثامن، أصبحت تعاني أكثر، وقد استفحل المرض في جسدها.

وذات يوم خرج الدكتور شعبان بسيارته لشراء بعض المستلزمات الطبية من الصيدلية التي اعتاد الشراء منها، وبعد أن اشترى ما يريد، وهمّ بالخروج فوجيء بطفل صغير يدنو منه ويسلمه ورقة صغيرة مطوية، فخرج مسرعاً، وركب في السيارة ثم فتح الورقة، فوجدها رسالة من الدكتور جورج يخبره فيها بخطة الهروب من البيت، وكيف أنه اتفق مع أحد المهربين الذي سيقوم بتوفير زورق وتجهيزه ليساعده بالهرب بحراً إلى سواحل تركيا، حيث سينتظره أشخاص آخرون وينقلوه إلى الولايات المتحدة، وأنه يتبقى على الدكتور شعبان تحديد الوقت المناسب لتنفيذ العملية.

قرر الدكتور شعبان الاستفادة من بعض خطة الدكتور جورج، مع تعديل في الجزء الأخير منها، فهو لن يهرب من السيد هاملر ليسلم نفسه والدكتورة مريم لشخص آخر.

كانت الدكتورة مريم منذ أن بلغ حملها تسعة أشهر عاكفة على كتابة شيء لم تفصح عنه، وذات ليلة دخل عليها الدكتور شعبان ليعطيها الدواء في موعده، فبادرته بإخراج ظرف أصفر مغلق وقالت له:

– هذا الظرف يا دكتور.. أريد أن تعطيه لصاحبه عندما يحين الوقت المناسب..

أخذه الدكتور شعبان بلطف وهو يقول:

– ومن هو صاحبه يا دكتورة؟ ومتى هو الوقت المناسب؟

فقالت وقد بدا التعب واضحاً عليها:

– صاحبه مكتوب عليه، والوقت المناسب تعرفه في حينه..

نظر الدكتور شعبان نحو الظرف فابتسم، ووضعه في جيبه الداخلي.

***

(٢٤)

بعد ٢٥ سنة:

جلس الدكتور جورج والدكتور شعبان وآسيا على مقاعد الصالة المريحة في عزبة الفيوم التي استأجرها الدكتور جورج لمدة شهر، بينما وقف الأستاذ هشام يشرح لهم بإسهاب فكرته:

– يربط الكثير من الباحثين بين الوزير إمحتب والنبي يوسف، فهذا الوزير الذي كان الرجل الثاني في الدولة في عهد الملك زوسر، وعرف بنبوغه في مجالات كثيرة كالطب والهندسة وغيرها، وقد ذكرت لكم من قبل لوحة المجاعة التي تتكلم عن سبع سنين من المجاعة في عهد الملك زوسر وفيها أن إمحتب كان له دور بشكل ما في النجاة منها.. إلا أنني لم أخبركم سابقاً أن الملك زوسر بنى مقبرته أول مرة في قنا جنوب مصر، لكنه بعد تعرفه بإمحتب غيّر مكانها إلى سقارة جنوب القاهرة..

فقاطعه الدكتور شعبان:

– وماذا يعني تغيير مكان المقبرة في ذلك العصر؟

فأجاب الأستاذ هشام:

– تغيير المقبرة يعني تغيير عقيدة الملك، ودينه ربما، مما يبين أثر الوزير إمحتب في شخصية الملك زوسر.. حتى أنه أعطاه ألقاباً كثيرة منها: حاكم المبنى الكبير، والشخص الذي تحت رأس ملك مصر، وحافظ أختام ملك مصر، و..

وقف الدكتور جورج على قدميه وقد جحظت عيناه قائلاً:

– مهلاً.. مهلاً.. ماذا قلت؟ .. هل قلت: حافظ الأختام؟..

فأجاب الأستاذ هشام وهو مندهش لاهتمام الدكتور جورج بهذا اللقب تحديداً:

– نعم.. يا سيدي.. من ألقاب إمحتب (ختمتي بتي) وتعني: حافظ أختام ملك مصر.. وقد اختلف الباحثون في تفسير المسؤولية الملقاة على عاتق صاحب هذا اللقب فقال بعضهم إنه ربما يعني مسؤول البلاط، أو أمير مصر، أو ولي العهد..

فقاطعه الدكتور جورج قائلاً والتوتر بادٍ عليه:

– بل معناه كما هو.. حافظ أختام الملك.. وهو بالضبط الوصف الذي ينص عليه العهد القديم للنبي يوسف لما فسّر رؤيا المجاعة لملك مصر، فقد جاء في العهد القديم أن الملك خلع خاتمه وأعطاه ليوسف، وألبسه ثياب بوص، أي كتّان، ووضع طوق ذهب في عنقه، وأمر المصريين بالركوع له وسماع أوامره.. وأطلق عليه اسم «صفنات فعنيح» وتعني كاشف الأسرار لأنه فسّر الرؤيا..

فقال الأستاذ هشام مؤيداً:

– وهذا كذلك أحد ألقاب إمحتب «كبير الرائين» أو مفسري الرؤى.. كما أن القرآن ذكر أيضاً أن الملك بعدما تعرّف بيوسف «استخلصه لنفسه»، أي جعله مقرباً له، وقال له: إنك اليوم لدينا «مكين أمين» أي ذو مكانة عالية، ووصف القرآن يوسف بعدها بأنه أصبح يتبوّأ من الأرض حيث يشاء، وهو ما كان عليه حال إمحتب مع الملك زوسر..

وعقّب الدكتور شعبان قائلاً:

– وحتى أنّ ثوب الكتّان الذي ذكرتماه يظهر في صورة تمثاله..

وقلب هاتفه ليظهر لهم صورة تمثال إمحوتب الذي بحث عنه في النت، وبدا فيه جالساً على كرسي وبيده بردية وقد ارتدى ثوب كتان أنيق.

وقال الأستاذ هشام بحماس وهو يشعر بأنه أوشك على التوصل لاكتشاف مهم:

– ولعل مصير الوزير إمحتب الغامض يؤكد حقيقة كونه النبي يوسف، فهو لا يعرف من أين أتى، ولا يعرف أين اختفى بعدها، ولا يعرف مدفنه..

فقال الدكتور جورج وهو مطرق رأسه على الأرض:

– لأن العهد القديم ذكر أن النبي موسى أخذ عظام يوسف معه عند خروجهم من مصر لدفنها في أرض آبائه..

فقال الأستاذ هشام معقباً:

– وهذا معنى اسم إمحوتب.. الذي جاء في سلام..

ثم قالت آسيا مجدداً:

– قصة المجاعة لسبع سنوات مذكورة أيضاً في ملحمة جلجامش منذ نحو أربعة آلاف عام..

فقال الدكتور جورج:

– هذا صحيح.. ويعتقد الكثير من الباحثين التاريخيين أن هذه الأسطورة هي الأساس لقصة النبي يوسف في الكتب المقدسة..

فعلّق الأستاذ هشام:

– بل العكس هو الصحيح.. إن قصة النبي يوسف وسني المجاعة التي أحسن إدارتها هي الأصل الذي أخذت منه ملحمة جلجامش..

فقال الدكتور جورج موافقاً:

– هذا صحيح.. إن كان النبي يوسف هو الوزير إمحتب، فتكون قصته هي الأصل الذي أخذت منه ملحمة جلجامش حكاية المجاعة لأن عصر الملك زوسر ووزيره إمحتب سبق العصر الذي كتبت فيه جلجامش..

فقالت آسيا وقد أعجبها تلاقح حضارة بلاد الرافدين مع الحضارة الفرعونية:

– وهذا التفسير يوضح أيضاً وجود قصة الطوفان في ملحمة جلجامش التي هي صورة أدبية لطوفان النبي نوح.. فقصص الملحمة إذن هي قصص دينية الأساس..

فقال الدكتور جورج وقد أعجب باستنتاجها:

– استنتاج دقيق..

فعادت آسيا لتقول وهي تشعر بالزهو لموافقة الدكتور جورج لها:

– بل إن هذا يفسّر أيضاً سر تشابه قصة سرجون الأكدي مع قصة النبي موسى..

تبادل الدكتور جورج النظرات مع الدكتور شعبان حالما ذكرت آسيا اسم النبي موسى، وسألها:

– وما هو التشابه بين القصتين؟

فقالت:

– حكت الأساطير السومرية أن سرجون الأكدي ولد لأسرة وضيعة، وأن أمه أخفته في سلّة، وألقته في الماء، فعثر عليه ساقي الملك، وانتشله وربّاه في كنف البلاط..

فقال الدكتور جورج:

– ولأن سرجون الأكدي ولد بحدود عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد، فقصته هذه لا بدّ أن تكون مأخوذة من قصة النبي موسى.. بمعنى أن النبي موسى يكون قد عاصر الفترة ما قبل ٢٣٠٠، وهذا يتوافق مع ما توصلنا إليه لغاية الآن.. ولكن! من هو الفرعون الذي عاصر النبي موسى؟

صمت الجميع، فقال الدكتور جورج مجدداً:

– إن أخذنا برواية العهد القديم فإن الفترة بين النبي يوسف والنبي موسى بلغت ٤٣٠ سنة، وإن أقررنا بأن إمحوتب هو نفسه النبي يوسف، فيكون آنذاك فرعون موسى هو من فراعنة الأسرة السادسة أو السابعة..

فاعترض الأستاذ هشام قائلاً:

– هذا مستبعد يا دكتور.. لأن الفترة المذكورة في التوراة بين النبي يوسف والنبي موسى مبالغ بها، لأنه وفقاً للعهد القديم نفسه فإن أمّ موسى واسمها يوكابد هي ابنة لاوي شقيق النبي يوسف، فبهذا يكون النبي يوسف عمّ أمّ النبي موسى، أي من جيل جده.. فكيف يُتصوّر أن تكون الفترة بينهما ٤٣٠ سنة؟

بقي الدكتور جورج صامتاً وغارقاً في تأمله، فقال الأستاذ هشام:

– إن الأقرب للتصديق هو أن تكون الفترة بين النبي يوسف والنبي موسى ما بين ٥٠–١٠٠ سنة وهي الفترة المنطقية بين جيل الأجداد والأحفاد.. ولذا فإن كان إمحوتب هو النبي يوسف، فإن الفرعون الذي عاصر موسى سيكون من الأسرة الرابعة..

ثم أضاف الأستاذ هشام:

– وقد يكون خوفو هو نفسه فرعون موسى، وهرمه هو الصرح الذي ذُكر في القرآن، والذي أراد منه أن يطّلع إلى إله موسى..

فقال الدكتور جورج موافقاً:

– ممكن جداً.. وربّما لهذا السبب نجد في الهرم الأكبر ما يُسمّى بفتحات التهوية.. وهما ممرّان مستقيمان يمتدّان من غرفة دفن الملك إلى سطح الهرم الشمالي والجنوبي.. فهما في الحقيقة منظاران نحو السموات..

فتساءل الدكتور شعبان:

– ولكن هل تنطبق طريقة بناء الهرم الأكبر التي حدّثتنا عنها يا هشام مع الطريقة المذكورة في القرآن؟

فأجاب الأستاذ هشام فوراً:

– يذكر القرآن أن فرعون طلب من هامان أن «يوقد له على الطين»، فهذه العبارة لوحدها لا تشرح كل شيء، لكنها ربما تشير لأمر مهم كان يستعمل في البناء، فالهرم ليس أحجاراً مرصوصة فحسب، والطين عامل أساسي في بنائه.

وقال الدكتور جورج معترضاً:

– لكن! كيف يكون الهرم الأكبر هو نفسه الصرح الذي أراد فرعون بناءه ليطلع إلى السموات ثم مات بعد فترة غير طويلة، بينما يقول المؤرخون أن بناء الهرم استغرق أكثر من عشرين سنة؟

فقال الأستاذ هشام موضحاً:

– لأن الهرم الأكبر لم يكتمل بناؤه في عهد خوفو.. بل أكمل بناءه ابنه خفرع ووزيره عنخاف كما تبيّن بعض البرديات المكتشفة حديثاً..

وساد صمت ووجوم في الصالة قطعه صوت الدكتور شعبان الذي كان يتأمل وجه ابنته الجميل وهو يقول:

– إذن قد يكون فرعون موسى هو نفسه خوفو.. وتكون ميريتيتيس حينها هي امرأة فرعون التي انتشلت النبي موسى من الماء..

***

دار البشير للثقافة والعلوم

الفصل الثاني عشر

(٢٥)

قبل ٢٥ سنة:

– يبدو أن علي إجراء عملية لاستخراج الطفلة يا دكتور..

هكذا قالت الدكتورة مريم للدكتور شعبان وهي تشعر باكتمال الحمل في أحشائها، بعد تمام أشهر الحمل التسعة، غير أن الدكتور شعبان كان رافضاً تماماً لفكرة إجراء العملية، فهو يعلم أن حالة الدكتورة مريم وتفشي الالتهابات في جسدها لن تسمح بذلك وستؤدي إلى الموت حتماً.

فقال لها بتلطف:

– اسمحي لي أن أنقلك للمشفى يا مريم.. ليس باستطاعتي إجراء هذه العملية كما تعلمين.. أرجوك..

فردت الدكتورة مريم بأنفاس متقطعة:

– اسمعني يا دكتور.. السيد هاملر لا يبالي بموتي أو نجاتي.. هو يريد الطفلة فقط.. وإن ذهبنا للمشفى فلن تفلت الطفلة من يديه مطلقاً.. وبكل الأحوال فأنا سأموت..

حاول الدكتور شعبان كبت دموعه قدر ما استطاع ثم قال:

– بل ستعيشين يا مريم.. وستربّين هذه الطفلة بين يديك..

فمدّت الدكتورة مريم يدها إلى فمه لتسكته بلطف قائلة:

– سأعيش في ذكرياتك يا عزيزي.. عليك أن تقوم بالعملية من دون علم السيد هاملر.. ثم تأخذ الطفلة معك وتهرب منه.. لعلنا بذلك نصحح ما اقترفته أيدينا من أخطاء..

فقال الدكتور شعبان وهو يحاول إيجاد بدائل لهذا الحل:

– ما زال بوسعنا إيجاد حل.. يمكننا إبلاغ الشرطة، وليكن ما يكون..

فردّت عليه الدكتورة مريم:

– أنت تعلم سلطة السيد هاملر في هذا البلد.. وهو لن يتخلى عن كنزه أبداً.. ولن يمنعه أحد منه.. الحل الوحيد هو الهرب.. أرجوك يا شعبان.. قم بالعملية من دون علم أحد.. وخذ الطفلة واهرب..

بقي الدكتور شعبان صامتاً، ولم يعرف ما يقول، هو يعلم في داخله أن كلامها صحيح، لكنه كان يُكذّب نفسه، ويفكر في أي سبيل آخر يمكن أن يجد من خلاله حلاً، ولكن دون جدوى.

وحين رأت الدكتورة مريم صمته، أدركت أنه اقتنع برأيها، فقالت له:

– غداً.. قم بالعملية غداً.. حاول أن تجهز كل ما تحتاج له من اليوم.. ثم قم بالعملية غداً..

فنهض الدكتور شعبان عندما أغمضت الدكتورة مريم عينيها من شدة التعب، وحين توجّه ليخرج بالسيارة التي خصّصها له السيد هاملر، فوجيء بأحد الحراس يقول له:

– إلى أين يا دكتور؟

فردّ الدكتور شعبان وهو ينظر للحارس باشمئزاز:

– أنا خارج لإحضار بعض المستلزمات الطبية كالعادة..

فمدّ الحارس يده قائلاً:

– أوصانا السيد هاملر بأن تكون تحركاتك في هذه الفترة محدودة وللحالات الطارئة فقط.. فهات قائمة المواد التي تريد إحضارها وسنجلبها لك..

شعر الدكتور شعبان بالعرق البارد يسيل على جبينه، فهو هذه المرة لن يخرج لشراء المستلزمات فحسب، بل ليثبت موعد الهروب النهائي مع المهرّب الذي اتفق الدكتور جورج معه قبل بضعة أسابيع، لكنّه قال بعد لحظة من التفكير:

– لكن هذه المواد فيها أنواع وأحجام كثيرة، وأخشى أن تقضوا اليوم كله في الذهاب والعودة لاستبدالها، وأنا ليس لدي وقت لهذه الألعاب..

ففكّر الحارس قليلاً بكلامه، ولم يكن مستعداً لهذه المهمة المملة فقال:

– طيّب.. طيّب.. ستذهب أنت وسيذهب معك أحد رجالنا..

ما كان للدكتور شعبان إلا أن يقبل هذا المقترح وإلا كان ليثير الانتباه إليه، فتظاهر بقبول الفكرة، وانطلق بسيارته وقد جلس أحد الحرّاس بجواره، وحين وصل إلى الصيدلية نزل مسرعاً ليدخلها، فأعطى الصيدلي قائمة المواد التي يطلبها، ثم أخذ ورقة صغيرة وقلماً من عند الصيدلي وكتب: «موعدنا غداً»، وطوى الورقة في كفه فوراً قبل أن يُفتح باب الصيدلية ليدخل منه الحارس الضخم وهو يمشي بكسل.

وبعد أن جهّز الصيدلي المواد ووضعها في صندوق كبير، دفع الدكتور شعبان الحساب، ثم قال للحارس:

– احضر صندوق المواد..

نظر الحارس بغضب نحوه دون أن يقول شيئاً، وقام بحمل الصندوق الذي بدا ثقيلاً نحو السيارة، وحين وضعه فيها، تلفّت فلم يجد الدكتور شعبان حوله، وقبل أن يشعر بالقلق، جاء الدكتور شعبان بسرعة نحو السيارة، فقال مبرراً تأخر وصوله:

– نسيت مفاتيح السيارة في الصيدلية..

ركبا في السيارة، وانطلق مسرعاً، بينما خرج من الصيدلية طفل صغير مسرعاً، وهو يحمل بيده الورقة الصغيرة.

***

(٢٦)

بعد ٢٥ سنة:

اعتذر الدكتور جورج عن الخروج مع المجموعة في جولاتهم الآثارية، متذرعاً بانشغاله في إعادة دراسة بحوثه السابقة بعد المناقشات الأخيرة مع الأستاذ هشام، والتي جعلته يعيد التفكير في جدّية سرد الأحداث ومصداقيتها في الكتب الدينية، والتي كان طيلة حياته يعتقد بأنها انعكاس لقصص أدبية كانت متداولة في ذلك الزمان الغابر، أما الآن ومع احتمالية أن تكون هذه الأحداث وقعت بالفعل في فترة سبقت تلك القصص الأدبية، فهذا يجعل الأمر معكوساً، لتكون الأحداث في الكتب الدينية هي الأصل ومنها أخذت قصص الزمن الغابر أدبياتها.

غير أنّ هذا لم يكن السبب الوحيد الذي اعتذر لأجله الدكتور جورج، وإنما كان يرسل رسائل مهمة عبر النت، ولم تعد ابتسامته المعروفة ترتسم على وجهه النحيل، إلا تكلّفاً حين يستقبل فريق الباحثين بعد عودتهم من جولاتهم بصحبة سكرتيره السيد كيفن.

أما الدكتور شعبان فكان يحسد الدكتور جورج على جلوسه في بيت العزبة الهادىء، الذي يدعو للاسترخاء، لكنّ رغبة آسيا الملحّة في الخروج في الجولات الآثارية تجعله مجبراً على مرافقتها. وقد شملت جولاتهم في اليومين الماضيين معظم الأهرام والمعابد الممتدة على المسافة من هضبة الجيزة حتى الفيوم.

وفي عصر اليوم الأخير، وبينما هم في طريق العودة إلى عزبة الفيوم اقترح عليهم السيد كيفن زيارة هرم (ميدوم) الذي لا يبعد سوى بضعة كيلومترات

عن مكان العزبة، وعندما وصلوا كان الدكتور شعبان مرهقاً من جولة اليوم فاقترح أن ينتظرهم في الكرفان بينما نزل الأستاذ هشام وآسيا لمشاهدة الهرم عن كثب، وبعد تسلق الكتلة الترابية المحيطة بالهرم وصلوا مدخله الذي كان يغلق بباب حديدي لحمايته عند انتهاء وقت الزيارة، فدخل هشام وأعقبته آسيا إلى داخل الهرم حيث قابلهم ممر ضيق نازل نحو أسفل الهرم.

وهبط الشابان بنشاط وحيوية حتى بلغا منتصف الممر، ففوجئا بصوت الباب الحديدي يغلق بقوة، فالتفتا فوجدا الباب قد أغلق فعلاً، فشعرت آسيا بشيء من التوتر، وارتدا بسرعة نحو الأعلى وعندما وصلا الباب وجدا أنه قد أغلق فعلاً، وحاول الأستاذ هشام فتحه بقوة بلا جدوى، وصاح بأعلى صوته عسى أن يسمعه أحد دون جدوى أيضاً.

قالت آسيا مستغربة:

– هل انتهى وقت الزيارة؟ كيف أغلق الباب؟

فقال لها الأستاذ هشام مطمئناً:

– لا تخافي.. لم ينتهِ وقت الزيارة.. لقد أغلق بالخطأ.. أنا متأكد.. سرعان ما سيفتحه أحدهم..

لم يكن متأكداً في الحقيقة، إنما أراد طمأنتها فحسب، ثم حاول أن يتصل بالدكتور شعبان، إلا أن شبكة الهاتف لم تكن تعمل داخل الهرم، فقال لآسيا:

– دعينا نكمل طريقنا في الأسفل نحو قلب الهرم وبعد أن نكمل جولتنا سيكون الباب مفتوحاً..

وافقت آسيا على الفور، فهي لا تعرف حلاً آخر في هذه اللحظة، وحين هبطا سلم الممر، قابلتهما فسحة صغيرة وفيها سلم مزدوج، صعدا عليه فوصلا

غرفة الدفن الهرمية الصغيرة، وفور وصولهما هناك انطفأت الكهرباء فوراً، فأظلم المكان بالكامل، شعر الأستاذ هشام بالقلق حول ردة فعل آسيا فأخذ يصيح بصوت مرتفع:

– آسيا.. لا تخافي.. أنا معك.. سأفتح مصباح الهاتف..

إلا أن آسيا لم تجبه بحرف واحد، فعاد ليصيح:

– آسيا.. آسيا.. أجيبيني..

وبقي الصمت والظلام يعمّ المكان. وبعد لحظات بدت طويلة للغاية، تمكن هشام من استخراج هاتفه، وفتح المصباح فيه، ونظر مباشرة نحو مكان آسيا فلم يجدها، فشعر بهلع شديد، وتلفت في المكان الصغير، فلم يعثر عليها، وأخذ يصيح بأعلى صوته، دون أن يتلقى رداً، فهبط فوراً من سلم غرفة الدفن نحو الفسحة الوسطية، حيث رأى منظراً غريباً.

كانت آسيا تجلس القرفصاء إزاء أحد الجدران دون حراك، وهي تحدق نحو نقطة واحدة في الجدار، فاقترب هشام منها بحذر وهو ينادي عليها دون جدوى، فأدرك أنها غائبة عن الوعي، ثم نظر نحو النقطة التي تنظر إليها في الجدار، وقام يتلمسها بحذر، ليجد أن إحدى صخرات الجدار قابلة للحركة، فحركها لتفتح باباً نحو ممر ضيق، وحالما فتح الباب، اندفعت آسيا زاحفة خلاله، فتبعها هشام.

وأخذت تزحف برشاقة وسرعة، بينما كان هشام يشعر بقلق متزايد من ضيق المكان وفقدانه القدرة على العودة إلى حيث كان، وبعد أن زحفا مسافة ثلاثين متراً تقريباً، اتسع الممر فجأة وأصبح بإمكانه السير على قدميه، فوقفت آسيا وأخذت تسير فيه، حتى بلغا نهاية مغلقة بجدار بعد نحو مائة متر، ووقفت

أمامه صامتة، فقام هشام بتلمس الجدار مجدداً وإذا به يفتح باباً آخر، وحالما خرجا منه، وجدا نفسيهما في غرفة واسعة، وضوء الشمس يدخل من بابها، وفي تلك اللحظة سقطت آسيا مغشياً عليها، فحملها الأستاذ هشام، فوراً وخرج من الغرفة فإذا بها غرفة المعبد المجاور لهرم ميدوم، فانطلق مسرعاً نحو السيارة حيث استقبله الدكتور شعبان الذي فزع لرؤية ابنته مغشياً عليها، وأخذ يعتني بابنته. أما الأستاذ هشام فأستاذنهم بانتظاره لحظات، وعاد مسرعاً نحو باب الهرم، ليجده مغلقاً بقفل حديدي، وقبل أن يعود أدراجه، لاحظ وجود قطع في سلك الكهرباء، فتفحصه جيداً ووجده قد قطع بفعل فاعل.

***

الفصل الثالث عشر

(٢٧)

قبل ٢٥ سنة:

رفعت الدكتورة مريم قناع الأوكسجين من فوق وجهها وقالت للدكتور شعبان الذي كان يحقنها بحقنة التخدير:

– دكتور شعبان.. صديقي العزيز.. شكراً على كل شيء..

لم يكن الدكتور شعبان قادراً على رفع رأسه والنظر إلى وجهها المتعب الشاحب، الذي أوشك على مغادرة هذه الحياة، فاكتفى بأن يمسك يدها، وبقي كذلك حتى ارتخت من أثر التخدير، فقام الدكتور شعبان وأجرى عملية قيصرية ورأى بعينيه ما فعلت هذه الالتهابات الغريبة بجسد صاحبته الصابرة المسكينة، ثم استخرج الطفلة التي بدت له بصحة جيدة، وعاد مجدداً يحاول تنظيف ما استطاع من جسد الدكتورة مريم، إلا أنه عرف فشل مسعاه وهو يراقب انخفاض ضغط دمها، وتباعد نبضات قلبها، نبضة تلو الأخرى، فلم يسعفه كل ما كان يعرفه من العلم، وكره في تلك اللحظة كونه طبيباً، ولم يجد نفسه إلا وهو يضع يده على يدها، كأنه يريد الإمساك بها، ومنعها من الرحيل، وأغمض عينيه متوسّلاً، إلا أن سلطان الموت كان أقوى من توسّلاته، وانطفأت جذوة الحياة في ذلك الجسد، فانهار الدكتور شعبان وجلس على كرسيّه دون حراك.

لم يعرف كم مرّ من الوقت وهو جالس في مكانه لا يتحرّك، كأنه كان يريد للزمن أن يتوقف، أو أن يعود القهقرى، لتعود الدكتورة مريم على مقاعد الدراسة، نشيطة أنيقة، تناقش الأساتذة، وتشرح لزملائها ما استعصى عليهم.

شعر كأن الموت يلفّ يديه من حوله هو أيضاً، وقد بدا مرحّباً به ومستسلماً له، إلا أنّ صوتاً ناعماً رقيقاً طرق سمعه كنسمة هواء باردة في قيظ الصيف، فأعاده للحياة فجأة، فنهض من كرسيه، ليسمع صوت الطفلة الصغيرة مجدداً، فقفز ليأخذها بين يديه، ويرى وجهها الملائكي الذي يفيض براءة ورقّة.

بقي الدكتور شعبان ينقل نظره بين الدكتورة مريم، وهذه الطفلة الصغيرة، بين الموت والحياة، فأدرك أنّ مهمته لم تنته بعد، وأن الأمر الذي ماتت في سبيله الدكتورة مريم لم يصل مبتغاه، وأقسم أن يكمل ما أرادته صديقته وحبيبته، ولن يتوانى في التضحية بكل شيء لتحقيق ذلك.

وضع الدكتور شعبان الطفلة الصغيرة في حقيبة كان قد أعدها مسبقاً، وبطّنها بقطن ناعم ليحميها من الارتطام بأي شيء، ثم حمل الحقيبة بحذر شديد، وألقى نظرة عجلى أخيرة على جثمان رفيقته المسجى أمامه، وما هي إلا ساعة من الزمن حتى كان يركب قارباً ويضع الحقيبة فيه بقربه وينطلق مسرعاً نحو البحر وحين اطمأن لابتعاده عن الساحل قدراً كافياً، أوقف الزورق في عرض البحر، وأخذ الحقيبة في حضنه، وفتحها، وأخرج الطفلة منها، فابتسم وهو ينظر لوجهها الجميل قائلاً: «لقد نجحنا يا آسيا».

***

(٢٨)

بعد ٢٥ سنة:

مساء ذلك اليوم كان الدكتور جورج ينتظر الفريق على أحرّ من الجمر، وبيده مجموعة من الأسئلة التي سجلها من خلال أبحاثه ومقارنته بين المكتشفات الأثرية ونصوص العهد القديم، وعندما وصلوا أخيراً من جولة هرم ميدوم، بدا الجميع شاحبي الوجوه وليس آسيا لوحدها فاستفسر الدكتور جورج منهم فقصّ عليه الأستاذ هشام ما حدث معهم، وكيف أنه يتصوّر أنّ ذلك العمل كان متعمَّداً.

كان الدكتور جورج وهو يستمع لحديث هشام يسترق النظر بين الحين والحين تجاه الدكتور شعبان، الذي بقي يحدق في وجه الدكتور جورج بنظرات تحكي الكثير من الغضب والقلق.

وبعد فترة من الصمت، قال الدكتور جورج:

– لكن ما الغرض من هذا الفعل؟

فقال الأستاذ هشام بسرعة:

– أنا لا أتصور أن الغرض هو احتجازنا في الهرم.. فهذا غير ممكن.. كان يمكننا الجلوس عند باب الهرم لحين حضور احد لانقاذنا.. لكني أظن أن الغرض كان تعريض آسيا لخوف شديد..

بقي الدكتور جورج صامتاً، فقالت آسيا:

– أنا لم أكن خائفة.. إنما شعرت ببعض التوتر عندما أغلق باب الهرم، وكأنه سبق لي أن كنت في هذا المكان.. وعندما انطفأت الكهرباء غبت عن الوعي..

فرأيت رؤيا أخرى.. رأيت ذات الرجل البدين ذي الملامح الحادة والذي رأيته عند مراكب الشمس، رأيته يزحف على ركبتيه في ممر ضيق.. في تلك اللحظة فقط أحسست بخوف شديد، قبل أن أستيقظ وأنا في السيارة..

نهض الدكتور جورج من دون أن يعلّق بكلمة واحدة، وخرج نحو شاطيء البحيرة حيث جلس هادئاً، قبل أن يلتحق به الدكتور شعبان ويجلس بجواره ثم يقول:

– هل تعرف شيئاً له علاقة بما حدث يا جورج؟

فهزّ الدكتور جورج رأسه نفياً، لكنه قال فجأة:

– عليك أن تأخذ ابنتك وتختفي مجدّداً..

لم يندهش الدكتور شعبان كثيراً لهذا الكلام، فقال:

– إذن فأنت تعرف شيئاً..

بقي الدكتور جورج صامتاً فعاد الدكتور شعبان ليقول بحزم:

– اسمعني يا صديقي.. أنا لن أهرب مرة أخرى.. لقد ارتكبت خطأً في الماضي ودفعت ثمنه قاسياً.. أما آسيا فهي لم تخطيء في شيء لتعيش طوال عمرها خائفة وهاربة.. أنا سأواجه أي خطر يهدد ابنتي.. ولن أسمح لأحد بإيذائها بعد الآن..

كان صدق كلمات الدكتور شعبان ومقدار الشجاعة والغضب فيها كافياً ليستثير الدكتور جورج الذي نظر بدهشة نحو الدكتور شعبان، فشعر هو الآخر بقوة وحزم، فقال:

– إذن دعنا ننهي هذه القصة بسرعة يا صديقي.. دعنا نكمل كل شيء..

في تلك اللحظة خرجت آسيا من باب الصالة بصحبة هشام متجهين بنشاط وحيوية صوب العجوزين الجالسين على شاطيء البحيرة، وحالما جلسا معهما قال الدكتور جورج لهما بحيوية تضاهي شبابهما:

– اسمعا يا أحبائي.. سنعمل معاً من اليوم على إنجاز بحث موسع حول ما توصّلنا إليه من علاقة النبي موسى بفراعنة الأسرة الرابعة..

شعر الشابان بسعادة غامرة وهما يسمعان عرض الدكتور جورج ستيفن الآثاري الأمريكي المشهور وهو يطلب منهما العمل معه، فوافقا فوراً، فقال الدكتور جورج:

– لكن علي أولاً أن أفهم بعض الأمور التي وجدتها خلال بحثي في اليومين الماضيين.. لقد جاء في العهد القديم أن ابنة فرعون هي التي عثرت على النبي موسى طفلاً صغيراً في النهر.. فكيف يمكن أن تكون ميريتيتيس زوجة خوفو هي التي عثرت عليه؟

فانبرى الأستاذ هشام للإجابة على هذا السؤال:

– اتفقنا سابقاً يا دكتور أن النص القرآني أثبت من نص العهد القديم وأوثق، لأنه مضمون الاتصال بالنبي محمد، بينما كُتب العهد القديم في عصر متأخر عن النبي موسى، ولأن القرآن ذكر أن زوجة فرعون هي التي وجدت الطفل في الماء، فتعبير العهد القديم قد يكون خطأ، أو بحاجة إلى تفسير.. وهنا أقول.. إن كنا نتحدث عن الملكة ميريتيتيس تحديداً، فهذه المرأة كانت ابنة فرعون، وزوجة فرعون، فهي ابنة سنفرو، وزوجة خوفو، فبذلك يكون النص القرآني ونص العهد القديم صحيحين..

لم يجد الدكتور جورج أي ثغرة يمكنه الاعتراض عليها في كلام الأستاذ هشام، لذلك فقد انتقل إلى السؤال التالي:

– جاء أيضاً في العهد القديم أن النبي موسى عندما فرّ خوفاً من بطش فرعون بعد أن قتل منهم رجلاً انتصاراً لقريبه، وسكن في أرض مدين، مات في تلك الأثناء ملك مصر، وجاء بعده ملك آخر، فلما عاد النبي موسى وواجه الفرعون الجديد، حدث الخروج ومات فرعون غرقاً.. وهذا يعني أن فترة حكم هذا الفرعون كانت قصيرة، وهذا لا ينطبق مع خوفو الذي حكم على أقل تقديرات الباحثين ٢٣ سنة.. فما تعليقك على هذه الإشكالية؟

فقال الأستاذ هشام:

– هذه الجزئية يا دكتور من الأمور التي يختلف فيها القرآن مع العهد القديم، فليس في القرآن ذكر لموت الفرعون الأول أثناء فترة مدين، والذي يترجح من مجموع الآيات القرآنية أن الفرعون الذي قتل موسى في عصره رجلاً مصرياً هو نفسه الذي عاد ليدعوه إلى الإيمان بعد رحلة مدين.. لأنه قال لموسى بعد عودته من مدين: «ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين».. بمعنى أن فرعون ما يزال يذكر تربيته لموسى وقتله الرجل المصري قبل عشر سنوات، وهذا على عكس العهد القديم الذي يذكر أن الربّ قال لموسى: ارجع إلى مصر فإن القوم الذين كانوا يطلبون نفسك قد ماتوا جميعاً..

بقي الدكتور جورج صامتاً يتأمل في كلام الأستاذ هشام، ثم بادر الدكتور شعبان ليقول:

– دعونا نحسب معاً فترة تقديرية لأعمار النبي موسى والفرعون، وباقي شخوص الحكاية.. أولاً كان النبي موسى طفلاً رضيعاً يوم عثرت عليه زوجة فرعون.. وبعد أن أصبح شاباً يافعاً.. لنفترض أنه بعمر ١٥ سنة قتل رجلاً مصرياً فهرب إلى مدين حيث مكث ٨–١٠ سنوات ثم عاد إلى فرعون بعمر ٢٥ سنة تقريباً، فحدثت معجزات النبي موسى خلال فترة قد تصل لمدة عام آخر وعندها حدث الخروج، وغرق الفرعون، فيكون عمر موسى حين الخروج ٢٦ سنة أو أكبر قليلاً، بينما حكم فرعون لفترة تصل إلى ٢٦ سنة أو أكثر.. وهذا ربما ينسجم مع فترة حكم خوفو التي ذكرها الباحثون..

ثم عاد الدكتور شعبان ليقول:

– بالمناسبة.. عندي سؤال هنا.. كيف يعقل أن يستجيب هذا الفرعون المتغطرس لطلب زوجته، وهو الذي أصدر أمراً صارماً بقتل كل الذكور من بني إسرائيل؟

فقال الأستاذ هشام:

– يبدو أنها كانت مطاعة لشدة حبّ زوجها لها..

فوقف الدكتور جورج وقد جحظت عيناه ووضع يديه على رأسه قائلاً:

– يا إلهي.. هذه إشارة أخرى للملكة ميريتيتيس.. زوجة خوفو.. هكذا كتب في اللوحة الجنائزية التي اكتشفها عالم الآثار ماريت أوغست.. مكتوب فيها: «محبوبة الملك وزوجته مريت ات ايس، التي تقول أي أمر فتطاع، عظيمة التفضيل عند خوفو».. يا إلهي.. إنها هي فعلاً التي ذكرت في القرآن..

كان الدكتور جورج والدكتور شعبان في تلك اللحظة ينظران نحو آسيا التي ابتسمت لهما وهي مستغربة من نظراتهما، قبل أن تقول:

– بالمناسبة.. توصلت البارحة لأمر جميل وأنا أبحث عبر النت.. هل تعلمون أن اسم (ميريتيتيس) يتكون من ثلاث مقاطع: .. (ميريت–إيت–إيس).. والكتابة المصرية القديمة تقرأ من اليسار لليمين، أما إن قرأنا الاسم من اليمين إلى اليسار بالعربية، فيصبح: (إيس–إيت– ميريت).. أو (آسية المحبوبة)..

عقدت الدهشة لسان الدكتور شعبان والدكتور جورج وهما يستمعان لكلام آسيا التي لم تكن تظن أن هذه الملاحظة تعني شيئاً.. فقال الأستاذ هشام فوراً:

– تفكيك ممتاز للاسم يا آسيا.. وإليك المفاجأة.. إن العرب يدّعون أن زوجة فرعون التي انتشلت موسى من الماء كان اسمها آسية بنت مزاحم..

***

الفصل الرابع عشر

(٢٩)

قبل ٢٥ سنة:

لا تزيد المسافة بين ساحل قبرص وساحل تركيا عن ١٠ كليومترات، حيث المكان الذي حدّده الدكتور جورج للقاء الدكتور شعبان في خطة الهروب التي أرشده إليها. غير أن الدكتور شعبان كان قد اتخذ قراراً مغايراً بالهرب بعيداً عن الجميع، فبعد أن أدرك أن الدكتورة مريم ستموت لا محالة، أعدّ خطة أخرى، بالاتفاق مع أحد المهرّبين، الذي كان ينتظره في عرض البحر ليأخذه بقارب آخر، بعيداً إلى السواحل السورية، ومنها كان عليه قطع طريق بري طويل قبل أن يصل إلى حدود العراق، حيث استقر طيلة السنوات اللاحقة.

ورغم أنه تمكّن من العمل كطبيب في أحد المشافي الخاصة، إلا أنه كان قد ألزم نفسه بالعناية بالطفلة الصغيرة لوحده، دون أن يسمح لأحد بالاقتراب منها، خصوصاً بعد ما سمع في إحدى المرات من بعض الأطباء العاملين أن أشخاصاً كانوا يبحثون في سجلات الأطباء العراقيين تعقّباً عن طبيب مسجل بهذا الاسم، فعرف أن ذراع السيد هاملر ربما تطاله، فأصبح يتنقل بين المدن العراقية، ويغيّر محل سكناه مراراً، حتى تمكّن أخيراً من الحصول على أوراق ثبوتية مختلفة عن أوراقه الأصلية، واشترى بها سيارة، ليستقر أخيراً في حي هاديء من أحياء بغداد الواسعة.

وعلى الرغم من عدم سماعه لأي شيء يدعو للقلق في السنوات اللاحقة، إلا أنه بقي محتاطاً للغاية وقد عزل نفسه عن كل محيطه الخارجي، فلم يكن له أصدقاء ليختلط بهم، ولم يسع للتواصل مع أحد من معارفه السابقين أبداً، وكلما كانت آسيا تكبر أكثر، كان يزداد تعلقاً بها، وحرصاً عليها، ويحيط بها أكثر فأكثر.

أما الدكتور جورج ستيفن الذي كان ينتظر الدكتور شعبان على شاطيء تركيا المقابل لجزيرة قبرص بعد أن أبلغه المهرّب بأنه التقى الدكتور شعبان وأنه أعطاه الزورق وانطلق به في عرض البحر حاملاً معه حقيبة واحدة، فقد بقي منتظراً حتى حلّ المساء فأدرك أن ثمة خطباً ما قد حدث، فانطلق بمساعدة مجموعة من الرجال الذين استأجرهم هناك للبحث في المنطقة البحرية الفاصلة بين تركيا وقبرص، وبعد أن أوشك أن يفقد الأمل تماماً، عثر رجاله على زورق فارغ إلا من حقيبة محشاة بالقطن الناعم، وقام الدكتور جورج بتفحص القارب والحقيبة بنفسه، فلم يغادره إلا بعد أن تأكد من نجاة الدكتور شعبان والطفلة الملكية معه.

عاود الدكتور جورج الاتصال بصديقه السيد هاملر، والذي كان يتفجر غضباً كالبركان لما آلت إليه الأمور، واتهم الدكتور جورج بأنه هو السبب في خسارته كل تلك الأموال، وحاول الدكتور جورج طمأنته بأنه ربما لم يخسر أمواله حقاً، وأن الطفلة الملكية ما تزال مع الدكتور شعبان في مكان ما، وأقنعه بمساعدته بالبحث عنه في الدول التي يمكن أن يكون مختبئاً بها.

واقتنع السيد هاملر بكلام الدكتور جورج مجدداً رغم أنه لم ينس له هربه من بيت نيقوسيا، وعصيانه أوامره، لكنه كان مضطراً لذلك، وبحث الاثنان

في سجلات الأطباء في عشرات الدول التي يمكن أن يكون الدكتور شعبان قد لجأ إليها دون جدوى، وحين أوشك السيد هاملر على فقدان الأمل، أخبره الدكتور جورج بأن عليه الانتظار كما لو كانت الطفلة معه، ففي كلتا الحالتين هو لن يقطف ثمار العملية قبل بلوغها سن الشباب حين تتمكن من استرداد الذاكرة الوراثية.

ومرّت السنوات الخمس والعشرون اللاحقة، والرجلان يعدّان عمر الطفلة سنة تلو الأخرى، تلك الطفلة التي أصبحت شابة، ولم يظهر الدكتور شعبان بعد، وذات يوم تلقّى السيد هاملر اتصالاً من صديقه القديم الدكتور جورج ستيفن يقترح عليه فكرة لإخراج الدكتور شعبان من مخبئه.

وتقضي الخطة بأن تعلن وسائل الإعلام كافة عن وفاة السيد هاملر، فعندئذ سيعود الدكتور شعبان مع الأميرة ليختبر الذاكرة الوراثية، وقد وافق السيد هاملر واشترط أن يرسل سكرتيره الشخصي السيد كيفن ليكون بصحبته دائماً وليكون وسيلة الاتصال بينه وبين الدكتور جورج، فينقل للسيد هاملر كل حين تطورات العملية. وبعد أن نفذ السيد هاملر كل تفاصيل الخطة، اتصل بالدكتور جورج ليخبره بموعد الإعلان عن وفاته رسمياً، ثم قال له:

– احذر يا جورج أن تتخيل أنك قادر على الهرب مني مرة أخرى..

***

(٣٠)

بعد ٢٥ سنة:

اتفق الجميع في نهاية اجتماعهم الأخير أن يذهبوا إلى ألمانيا لمعاينة الآثار المصرية في المتحف المصري ببرلين للوصول إلى نتيجة نهائية لبحثهم، وبينما اصطحب السيد كيفن سكرتير الدكتور جورج كلاً من الأستاذ هشام وآسيا لإجراء المقابلة في السفارة الألمانية، بقي الدكتور شعبان جالساً مع الدكتور جورج بانتظار عودتهما في بيت العزبة وهو يقول له:

– هل تعتقد أنّ رؤيتها لمقتنيات متحف برلين من الآثار المصرية سيكون ذا فائدة فعلاً؟

فقال الدكتور جورج بهدوء:

– لا شكّ في ذلك.. أعلم أنك تخاف عليها كثيراً.. ولكن ستكون هذه الرحلة آخر اختبار لذاكرتها الوراثية..

صمت الدكتور جورج لحظات ثم قال:

– لكن أرجوك يا دكتور شعبان.. قل لي الحقيقة.. هل كانت تسميتك لآسيا مجرد رؤيا رأتها الدكتورة مريم فعلاً؟

فتذكر الدكتور شعبان وجه صديقته الشاحب وهي تقصّ عليه رؤياها وقال:

– صدقني يا صديقي.. لم يكن اسم آسيا إلا رؤيا رأتها الدكتورة مريم في آخر أيام الحمل.. نحن لم نكن نعرف شيئاً عن هذه التفاصيل التاريخية التي تتكلمان عنها اليوم أنت والأستاذ هشام..

ولأن الدكتور جورج لم يجرّب الكذب على الدكتور شعبان من قبل فقد صدّقه وهو يقول:

– هذا أمر غريب فعلاً.. أنا لست ممن يؤمنون بالماورائيات.. فطوال عمري تمكنت من إيجاد إجابات مادية على كلّ ما له علاقة بتطور الحركة الدينية بين الحضارات.. إلا أنني هذه المرة أجد نفسي مضطراً للتصديق بكثير من الغيبيات الدينية..

فردّ الدكتور شعبان قائلاً:

– عليك أن تصدّق يا صديقي.. أو على الأقل أن تختبر بحيادية تامة احتمالية صدق هذه النصوص الدينية.. لا أن تنطلق من فكرة إنكارها وتكذيبها..

فأومأ الدكتور جورج بالموافقة، ولكنه رفع رأسه قائلاً:

– لكن ما تزال العديد من التساؤلات عالقة في ذهني.. فالنصوص الدينية فيها تفاصيل أخرى قد لا تدعمها البحوث الآثارية.. منها مثلاً المناطق التي سكنها بنو إسرائيل في مصر، وليس عليها أي دليل آثري.. ومنها لقب فرعون الذي أطلق على ملك مصر بينما ليس في الآثار ذكر لهذا اللقب.. ومنها عدم وجود ذكر للأحداث التي جرت بين فرعون والنبي موسى في الأثريات المصرية.. فكيف يعقل هذا؟

في تلك اللحظة دخل الأستاذ هشام تتبعه آسيا، وقال على الفور:

– لأن الآثاريين كانوا يبحثون في النقطة الخطأ..

فقام الدكتور شعبان سعيداً برؤية ابنته التي تركها لأول مرة في حياته تخرج برفقة غيره، لما رآه في هذا الشاب المهذب النابغة من أخلاق وحسن تصرف، ثم قال:

– أهلاً بكما.. ما أخبار تأشيرة الدخول لألمانيا؟.. هل هناك أمل في الحصول عليها قريباً؟

فقال الأستاذ هشام على الفور:

– لقد حصلنا عليها فعلاً يا دكتور.. إنها أسهل معاملة تأشيرة رأيتها في حياتي.. وقد ساعدنا السيد كيفن مشكوراً.. فبمجرد أن أجرى بعض الاتصالات انتهى كل شيء وحصلنا على التأشيرة..

نظر الدكتور شعبان باستغراب نحو الدكتور جورج، الذي بدا للحظة مرتبكاً، ثم قال:

– نعم.. نعم.. أنا من أمرت السيد كيفن بالاتصال ببعض المسؤولين لتسهيل المهمة..

فقال الأستاذ هشام:

– لكنها تأشيرتان فقط.. لي ولآسيا..

كان الدكتور شعبان يراقب وجه الدكتور جورج، فشعر بارتباكه، وعرف أن يداً ما تعبث بهذا الموضوع، فقال فوراً:

– لا بأس.. ستسافران معاً.. وسننتظركما أنا وجورج هنا..

فابتسم الدكتور جورج مجدداً وقال للأستاذ هشام:

– استعدا إذن للسفر قريباً.. ولكن قل لي أولاً.. ماذا قصدت بالبحث في النقطة الخطأ؟

فقال الأستاذ هشام:

– أنا أقصد يا دكتور أن معظم الباحثين في موضوع النبي موسى وبني إسرائيل، كانوا يبحثون في فترة زمنية غير صحيحة.. ولو أنهم درسوا كل

الاحتمالات لربما وصلوا إلى الأماكن التي سكنها بنو إسرائيل فعلاً.. ووجدوا الآثار التي تحكي تفاصيل ما حدث بين فرعون وموسى..

فقال الدكتور جورج وقد بدا مقتنعاً أكثر:

– ولكن لقب فرعون ليس قديماً يا هشام.. بل أظنه من اختراع النصوص الدينية..

بقي الأستاذ هشام ساكتاً، فبادرت آسيا قائلة:

– أنا بحثت في هذا الاسم دكتور.. فوجدت بعد مراجعة نصوص القرآن أن كلمة فرعون كانت تطلق على الرجل الذي حكم مصر أيام النبي موسى، بمعنى أنها كانت وصفاً للشخص وليس لقباً يدلّ على الملك. وبناء على ذلك حلّلت كلمة فرعون كما تحلل الأسماء المصرية القديمة فوجدتها تتكون من ثلاثة مقاطع: (إف–رع–أون) والتي تعني باللغة المصرية القديمة: المتمثل، (أو المتشبه) بـ(رع)، إله مدينة أون. ومدينة أون هي مدينة الشمس (هيليوبوليس)، وهي مركز عبادة إله الشمس (رع)، وتُسمى (أون، أو آن) وتعني العمود أو العمدان، فهي المدينة ذات العمدان. لذلك فإن كلمة (فرعون) هي اسم الملك الذي عدّ نفسه هو الإله (رع)..

كان جميع الجالسين يعرفون مدينة (أون) ويعرفون الإله (رع)، لكنّ تحليل اسم الفرعون وربطه بهذين الاسمين كان جديداً عليهم، فأصغوا لمحاضرة آسيا التي أكملت قائلة:

– وعندما بحثت عن الفترة التي نشطت بها عبادة الإله (رع) لغرض الوصول إلى الفرعون المقصود، وجدت أن عصر الإسرة الرابعة هو العصر الذي بدأ يعرف إضافة اسم هذا الإله في اسم الفرعون.. أولاً (جيدفرع)

وتعني الثابت مثل (رع).. وثانياً (خفرع) وتعني المتجلي مثل (رع).. وثالثاً (منكاورع) وتعني طويل العمر بقوة (رع).. لكنّي اكتشفت أن هؤلاء الملوك إنما كانوا يقصدون بهذا الاسم (رع) أباهم، أول ملك ادعى الألوهية وغيّر دين المصريين.. وهو خوفو..

لم يحتمل الدكتور جورج تلقي كل هذه المعلومات دفعة واحدة، فوقف على قدميه وأخذ يصفق بحماس لآسيا التي تورّد خداها وهي تنظر مرة نحو أبيها، ومرة نحو هشام، واللذان شاركا الدكتور جورج بالتصفيق.

فقال الدكتور جورج بعد أن هدأ قليلاً:

– هذه أول مرة أسمع مثل هذا التحليل الرائع للاسم (فرعون).. وأظن أن توارث هذا الاسم لاحقاً في أجيال ملوك مصر أخرجه عن معناه الأصلي الذي أراده خوفو لنفسه، وأصبح كل ملك يطلق عليه هذا الاسم، حتى جاء عصر كتابة العهد القديم فاستخدم الاسم كما كان شائعاً في حينها لجميع ملوك مصر.. ما رأيك يا أستاذ هشام؟

فقال الأستاذ هشام:

– هذا ممكن جداً يا دكتور.. ولذلك ذكر القرآن أن فرعون الذي عاصر النبي موسى ادّعى الألوهية وقال: «أنا ربكم الأعلى».. وهو معنى كلمة فرعون كما شرحت آسيا.. بينما ذكر القرآن كلمة ملك لوصف الملك الذي عاصر النبي يوسف..

فأومأ الدكتور جورج بالموافقة والتفت نحو آسيا التي أكملت قائلة:

– وقد صادفني أثناء البحث وجود عدو دائم للإله (رع) وهو (أبوفيس)، والذي يُرمز له بهيئة ثعبان ضخم.. فالأسطورة الدينية المصرية تزعم أن الإله

(رع) يعبر كل ليلة نهر النيل تحت الأرض وصولاً للعالم التحتي ثم يعود للظهور صباح اليوم التالي، وتحاول قوى الشر منعه وخصوصاً أبوفيس الذي يهاجم كل صباح مراكب الشمس لمنعها من الإبحار نحو الأفق.. ثم بحثت عن مراكب الشمس وإذا هي مراكب خوفو التي رأيناها مدفونة بجوار الهرم الأكبر.. مما يؤكد أن خوفو كان يتمثّل ويتشبّه بالإله (رع)..

فقال الأستاذ هشام عند هذه الملاحظة:

– ولعل رمز الشر الثعبان (أبوفيس) هو عصا النبي موسى التي تحدّى بها فرعون، فعدّه فرعون عدواً له.. ما رأيك يا دكتور جورج؟

كان الدكتور جورج يتصبب عرقاً في هذه الأثناء، وبقي صامتاً للحظات قبل أن يقول:

– ممكن.. ممكن جداً.. خصوصاً إذا ما علمنا أن رمز الأفعى كان دائماً في ثقافة المصريين القدماء رمزاً للحياة، فالثعبان والحدأة رمزان مرتبطان بالاسم النبطي للملك المصري ويعنيان القوة والحماية، فلا يُفهم سر ظهور رمز للشر بهيئة ثعبان وإن كان مختلف الهيئة، إلا بحدوث حادث معين ربط هذا الثعبان بالشر في نظر فرعون ومن بعده..

في تلك اللحظة التقط الدكتور جورج عصاه واحتضنها قرب صدره، فيما ارتسمت على وجه الدكتور شعبان ابتسامة مكتومة.

***

الفصل الخامس عشر

(٣١)

قبل ٥٤ سنة:

لم يتخيل الشاب الصغير إبراهام ستيفنسون ذو الستة عشر عاماً أن يقع اختيار مجلس الحاخامات عليه ليكون ضمن البعثة الآثارية اليهودية التي تتولى مهمة البحث والتنقيب عن آثار بني إسرائيل في جبال البحر الميت، لكن هذا الشاب النحيل الجسم لفت انتباه حاخامات ومعلمي مجتمع طائفة حاسيديم اليهودية في أوكرانيا بما يطرحه من أسئلة، وما يثيره من نقاشات حول موضوع الآثار الدينية.

وبدا واضحاً لكل معلميه أنه يتمتع بنبوغ ظاهر، وأنه سيخدم الأفكار والعقائد اليهودية مستقبلاً، ولذلك فقد أصرّ رئيس المجلس على اختياره ضمن البعثة السرية التي قررت الجماعة إرسالها للبحث عن آثار بني إسرائيل في منطقة البحر الميت، أو «بحر الملح» كما جاء ذكره في العهد القديم.

وبعد جمع المبالغ اللازمة لهذه البعثة، وفّر المسؤولون جوازات سفر بأسماء مزيفة لأفراد البعثة لكي يتمكنوا من دخول الأردن الذي كان لا يمنح اليهود تأشيرة دخول في ذلك الوقت.

دخلت المجموعة البحثية الدينية السرية إلى الأردن، يقودها باحث عجوز، ومساعده، وباحثة مختصة بالتنقيب، وأخيراً الباحث الشاب إبراهام الذي لم يكن دوره يزيد على مراقبة الباحثين والإفادة من معلوماتهم، فكأنه كان مرسلاً لغرض التدريب فحسب.

وبعد عدة زيارات للمنطقة، حدد الباحثون المكان المقصود بالبحث، وهو أشبه ما يكون بشق جبلي وعر في منطقة وسطية بين «حمامات ماعين» و«وادي حمارة» السياحيين اللذين يطلان على البحر الميت، وقد اختاروا هذا المكان تحديداً استناداً إلى الإشارات الواردة في العهد القديم حول أرض موآب التي صعد إليها النبي موسى قبل أن يموت ويدفن في مكان مجهول تماماً.

وبدأ الباحثون عملية التنقيب السرية بحذر شديد، حيث كانوا يعملون ليلاً، ويعودون مع الفجر إلى الفندق في المنطقة السياحية المجاورة، ويتظاهرون طيلة النهار بالاستمتاع بالمياه الدافئة العلاجية.

وبعد أسبوع من العمل، ورد اتصال هاتفي إلى غرفة رئيس البعثة العجوز من رئاسة مجلس الحاخامات في أوكرانيا، فجمع بقية أعضاء البعثة بما فيهم الشاب إبراهام، وأبلغهم بأنهم سيغادرون غداً لأن معلومات وردت بأن السلطات الأردنية تتحرى عنهم وسرعان ما سيُكتشف أمرهم، ولذا فإنهم هذه الليلة سيعملون على دفن ما قاموا بحفره في الأيام الماضية لتخريب الموقع خشية وقوع محتوياته بيد الآخرين.

ومع انتصاف الليل، كان الباحثون يعملون على ردم المواقع التي سبق لهم حفرها بخفة وحذر، وتحت وطأة ظلام الليل الحالك، وبلغ الشاب إبراهام موضعاً زلقاً، فانزلقت قدمه وارتطم على الأرض بقوة، لتنفتح فجوة صغيرة بين صخرتين مرتفعتين، ويسقط جسم الشاب النحيل من خلالها، ويقع على أرضية صلبة داخل كهف أرضي.

عندما أنهى الباحثون عملهم، افتقدوا الباحث الشاب، فبحثوا عنه في كل مكان حتى وجدوا تلك الفتحة، وبالكاد رأوا الشاب في قاعها ممدداً بلا حراك،

فنادوا عليه بأعلى أصواتهم دون جدوى، فغلب على ظنهم أنه قد مات من أثر السقوط، وحاولوا النزول إليه، لكن الفتحة كانت ضيقة جداً، واستمروا بمحاولاتهم طوال الليل دون جدوى، وعندما أوشك الفجر على الظهور، خشي أفراد البعثة السرية انفضاح أمرهم، فلم يجدوا بدّاً من غلق الفتحة مؤقتاً، على أن يعودوا في الليلة التالية لمحاولة استخراج جثة إبراهام.

وعند عودتهم للفندق، وردهم اتصال مهم من مجلس الحاخامات يبلغهم بضرورة المغادرة فوراً، فطلبوا البقاء يوماً آخر وأخبروهم بموت إبراهام، لكن الأمر كان صارماً بترك كل شيء والإسراع بالمغادرة فوراً.

في تلك الأثناء كان الشاب النحيل قد بدأ يصحو، وشعر بصداع شديد، وتلمّس رأسه فوجد جرحاً عميقاً في جانبه، وبعد دقائق أخذ يتفحص المكان الذي انزلق فيه وإذا هو أشبه بكهف صغير، فبدأ يتلمس جدرانه بحذر، وقد عمّ الظلام المكان، وبعد دقائق بدأ نور الشمس يتسلل إلى الكهف من شقوق الفتحة العليا التي وضع زملاؤه عليها صخرة مؤقتة، لتتضح صورة المكان الذي سقط فيه، وإذا هو غرفة صغيرة محفورة في صخور الجبل بعناية وليس لها مدخل أو مخرج سوى الفتحة الصغيرة في أعلاها، وبعد مزيد من التدقيق والفحص وجد شقاً طولياً في أحد جدرانها، وضع فيه صندوق قديم بطول متر ونصف تقريباً، وبعد عدة محاولات استخرجه من الشق، ولاحظ وجود كتابة عربية على سطحه، دون أن يعرف ما هي، فهو سبق له أن رأى الخط العربي وأعجب به، لكنه لم يتعلمه.

وحين فتح الصندوق وجد فيه شيئاً ملفوفاً بخرقة قديمة للغاية، فحاول إزاحتها لكنها أخذت تتكسر بين يديه، فلم يتجرّأ على المزيد.

كان قلب الشاب النحيل يطرق بشدة لأنه شعر أنه أمام اكتشاف عظيم، لكن عليه أولاً أن يخرج من هذا الكهف، ولم يجد طريقة سوى محاولة استخدام الصندوق الحديدي الذي عثر عليه، ليقف عليه، وبعد بعض المحاولات الفاشلة تمكّن أخيراً من الوصول للسقف ودفع الصخرة التي تغلق الفتحة، ثم خرج سليماً وبيده كنز أثري لا يعرف عنه شيئاً. وبادر فوراً لإزالة جزء من الخرقة المحيطة به، ليجدها عصا طويلة من خشب قديم أصفر.

وبعد أن عاد إلى الفندق ماشياً فوجيء عمال الفندق برؤيته على هذا الحال، وقد لوّث الدم وجهه، فقاموا بإسعافه، وأخبروه أنّ مسؤولين أمنيين حضروا صباحاً وطلبوا مقابلته هو ورفاقه.

شعر إبراهام بالخوف، وأسرع بجمع أغراضه، وقال لنفسه: «علي أن أهرب بسرعة»، فانطلق فوراً لحجز تذكرة سفر إلى الولايات المتحدة، وقدّم جواز سفره الذي كُتب فيه اسمه المزور الذي اختير له: «جورج ستيفن».

***

(٣٢)

بعد ٥٤ سنة:

لم يخطر على بال آسيا يوماً أن يسمح لها أبوها بالسفر إلى ألمانيا بهذه البساطة، لكنها فسرت ذلك فيما يبدو بأن ثقته المطلقة بالأستاذ هشام هي التي جعلته يسمح بهذا.

وبينما كانت آسيا وهشام جاهزين للذهاب إلى المطار، استخرج الدكتور شعبان من جيبه ظرفاً قديماً أصفر حالما رأته آسيا عرفته، فقد سبق أن رأته في خزانة مكتب أبيها في بغداد، فسلمها أبوها الظرف قائلاً:

– بعد أن تزورا الآثار في متحف برلين، اقرئي محتويات هذا الظرف بالكامل.. كل محتوياته.. واحرصي أن يقرأه الأستاذ هشام معك..

أخذت آسيا الظرف باستغراب، وقرأت الاسم المكتوب على ظهره: «إلى آسيا»، وقالت:

– وما الذي فيه يا أبي؟

فأجاب باقتضاب:

– ستفهمين كل شيء حين تفتحيه..

فاستجابت آسيا ووضعت الظرف في حقيبتها وانطلق الشابان فوراً بصحبة السيد كيفن الذي أوصلهم إلى المطار. وعندما عاد إلى بيت العزبة لم يكن

الدكتور جورج والدكتور شعبان موجودين فيه، فأخذ يفتش بتوتر شديد في كل أرجاء العزبة قبل أن تخبره خادمة العزبة أنهما ركبا سيارة أجرة من دون أن تعرف وجهتهما.

أما الدكتور شعبان والدكتور جورج فقد كانا على موعد مع أحد باعة الأثريات الذي تواصل معه الدكتور جورج مؤخراً، ووعده بالحصول على نسخة غير مكتشفة من «بردية وستكار»، وعندما وصلا بعد ساعتين إلى مكان اللقاء المتفق عليه وهو معرض أنتيكات في أطراف محلة خان الخليلي التاريخية، وسط القاهرة القديمة، استقبلهما صاحب المحل بترحيب كبير، وأخبرهما بقرب وصول الرجل الذي يملك البردية.

فبقي الرجلان ينتظران في مكتب صاحب المعرض المليء بالأنتيكات التي تبهر الأعين، إلا عيني الدكتور جورج اللتين لا تبهرهما سوى الآثار القديمة.

وبعد نصف ساعة من الانتظار وصل الرجل المنتظر مع البردية الأثرية، وكان رجلاً كبيراً في السن، ضخم الجثة، وأغلق صاحب المعرض معرضه، تاركاً الرجال الثلاثة معاً لعقد صفقة الشراء.

وأخذ الدكتور جورج والدكتور شعبان يتأملان نسخة البردية التي كانت محفوظة بطبقة شمعية شفافة وضعت فوقها بعناية، لمنعها من التآكل، وقد بدا للدكتور جورج وهو يشرح لصديقه أهمية هذه البردية أنها كتبت في عصر قريب من العصر الذي كتبت به «بردية وستكار»، فقال:

– وهذا يعني أن هذه القصة الواردة في البردية كانت قصة مألوفة.. تنسخ منها عدة نسخ في زمن واحد..

فعلق الدكتور شعبان:

– وما أهمية القصة المذكورة فيها؟

فقال الدكتور جورج وهو ما يزال معلقاً عدسته على عينه وينظر نحو البردية بدقة:

– أهميتها في مضمونها.. فهذا العمل الأدبي المكتوب في عهد المملكة الوسطى يحكي قصة حدثت في عهد الملك خوفو.. أي أنها كُتبت بعد ألف سنة من عصر خوفو.. ولذلك فإن هذا العمل الأدبي يبين تصوّر المصريين القدامى لحياة من سبقهم..

فقال الدكتور شعبان باهتمام:

– وهل في مضمونه شيء مما نبحث عنه يا جورج؟

فالتفت الدكتور جورج نحو صاحبه وقال:

– أظن ذلك..

في تلك اللحظة انتبه صاحب البردية إلى اسم الرجل النحيل الذي يتفحص البردية وقد ناداه الرجل الآخر باسم «جورج»، فاقترب بوجهه إلى وجه الدكتور جورج، ثم انتفض فجأة من مكانه واستخرج من جيب ثوبه مسدساً ووجهه نحو الدكتور جورج وصاح:

– هل أنت جورج ستيفن حقاً؟.. يا إلهي.. كنت أبحث عنك لسنوات طوال.. وها أنت ذا تأتي إلي بقدميك..

فوجيء الرجلان وارتدا إلى الخلف وهما يشاهدان انتفاضة هذا الرجل الضخم، ومقدار الغضب الذي أبداه، فبادر الدكتور جورج بتهدئته قائلاً:

– مهلاً.. مهلاً.. يا صديقي.. أنا لا أعرف من أنت.. ولا أعرف أسباب غضبك مني.. لكني على استعداد لإرضائك..

فازداد حنق الرجل وقال غاضباً:

– ترضيني؟.. أبداً لن يرضيني شيء سوى قتلك أيها الحقير.. هل نسيت كيف خدعتنا عند أهرام الملكات قبل ٢٥ سنة؟ فهربت وتركتنا لنسجن كل تلك السنين.. ها قد حان الوقت لتدفع الثمن..

تذكّر الدكتور شعبان فوراً ذلك الرجل وعصابته، وتأمل فوراً يده التي يحمل بها المسدس، ورأى آثار الإصابة القديمة التي أصيب بها عند محاولة سرقة كنوز التابوت الوهمية، فقرر التدخل قبل أن ينفذ الرجل تهديده فقال:

– إهدأ يا سيد.. أنت لن تنتفع شيئاً من قتل أحد سوى إرضاء رغبة الانتقام لديك.. وهذه لذة تزول بعد لحظات.. ولكن إن عرضنا عليك مبلغاً من المال يرضيك ستبقى لذته طويلاً..

فصاح الرجل بوجه الدكتور شعبان:

– اخرس.. سأقتلكما معاً.. وآخذ مالكما..

وبينما سحب الرجل ملقّمة المسدس بقوة استعداداً لإطلاق الرصاص، أغمض الدكتور شعبان والدكتور جورج أعينهما استعداداً لمواجهة مصيرهما المحتوم، إلا أنهما بدلاً من سماع صوت الرصاص سمعا صوت ارتطام ثم

سقوط، ففتحا أعينهما ليجدا السيد كيفن واقفاً وبيده إحدى الأنتيكات الضخمة وقد ضرب بها رأس الرجل الضخم فخرّ ساقطاً على الأرض.

بينما التقط العجوزان أنفاسهما، كان السيد ستيفن يقوم بتوثيق يدي الرجل الذي بدأ يستفيق شيئاً فشيئاً، وبعد لحظات قال له الدكتور جورج:

– اسمع يا صديقي.. أنا لم أخدعك قبل ٢٥ سنة.. بل أنت وأصحابك خدعتموني.. ولم تنفذوا ما أردت منكم..

واستخرج من جيبه مبلغاً من المال وألقاه على وجه الرجل، قبل أن يغادروا جميعاً، وفي طريق العودة سأل الدكتور جورج سكرتيره:

– كيف عرفت مكاننا؟

فقال السيد كيفن:

– رأيت رسائلك مع صاحب المعرض على الحاسوب..

وانتبه الدكتور شعبان فجأة قائلاً:

– ولكن ماذا عن البردية عزيزي جورج؟ لقد نسيناها..

فعاد الدكتور جورج ليقول بهدوء:

– لا شيء فيها يهمنا يا دكتور.. فالجزء الأول والجزء الأخير منها ممزقان أيضاً.. مثل بردية وستكار.. وقد كنت أظن أنها مُزقت من قبل المكتشفين في العصر الحديث.. لكنني الآن عرفت أنها مُزّقت قديماً..

فقال الدكتور شعبان:

– لماذا؟ ومن الذي يمكن أن يمزقها في ذلك العصر؟ وما دلالة ذلك؟

فبدأ الدكتور جورج يشرح لصاحبه حكاية بردية وستكار:

– تتكون البردية من خمس قصص.. أو هي خمسة فصول لقصة مترابطة.. القصة الأولى في عهد الملك زوسر.. وتدور حول إمحوتب.. إلا أنها ممزقة.. والقصة الثانية في عهد الملك نب كا.. وهي حول خيانة زوجة الكاهن لزوجها مع أحد الفلاحين.. والقصة الثالثة في عهد الملك سنفرو.. وهي حول رحلة في النهر، يسقط خلالها عقد الجارية الجميلة، فيقوم الساحر بطيّ النهر حتى تظهر قاعه ويستعاد العقد.. والقصة الرابعة في عهد الملك خوفو.. وهي عن ساحر متمكّن يقف بوجه خوفو ويرفض تلبية طلبه لمعرفة مكان معبد تحوت.. وأما القصة الخامسة فهي في عهد خوفو أيضاً.. وهي تدور حول ولادة ملوك ثلاثة للملك خوفو.. ثم تتمزق البردية مجدداً عند هذا الحد..

فعلّق الدكتور شعبان:

– إنها فعلاً قصص عجيبة.. ولكني أظن أنها انعكاس أدبي لأحداث حقيقية.. كما هو الحال في كل الأساطير الأدبية القديمة..

فقال الدكتور جورج موافقاً:

– هذا صحيح.. وقصص هذه البردية ترتبط بشكل مباشر بقصة النبي موسى والنبي يوسف.. فالساحر الذي يطوي النهر حتى يظهر قاعه.. والساحر الذي يرفض أوامر فرعون لإرشاده لمعبد الإله.. وقصة الخيانة الزوجية لزوجة الكاهن.. كل هذه القصص لها أصول دينية استندت عليها..

فقال الدكتور شعبان:

– إن ربط هذه الرموز الأدبية المتعلقة بخوفو معاً يرسم صورة كاملة لأحداث النبي موسى والفرعون.. فرمز الشر أبوفيس، والساحر الذي يطوي النهر، والساحر الذي يرفض أمر خوفو، كلها انعكاسات أدبية لقصة النبي موسى مع فرعون..

فعلّق الدكتور جورج:

– كلامك دقيق يا صديقي.. يبدو أننا اقتربنا أكثر من أي وقت مضى من إجابة جميع الأسئلة..

فأرخى الدكتور شعبان رأسه على مقعد السيارة وهو يشعر بالتعب قائلاً:

– وماذا بعد يا جورج؟ أليس لرحلتنا هذه نهاية؟

فأجابه الدكتور جورج بصوت خفيض:

– بلى يا عزيزي.. بقيت حلقة أخيرة..

***

الفصل السادس عشر

(٣٣)

قبل ٤٦٠٠ سنة:

خيّم موكب الملكة ميريتيتيس كالعادة جوار بحيرة جاسان التي عثرت فيها منذ نحو سنتين على الطفل العبراني الذي أسمته «موسي» وكفّلته لأسرة فقيرة من العبرانيين ليرضعوه، فأعلن الملك خوفو بذلك إلغاء أمر قتل الأولاد العبرانيين الذي أصدره من قبل، استجابة لرغبة زوجته الجميلة التي لا يعصي لها طلباً. وكم حاول وزيره «حم إيونو» ثنيه، والإبقاء على قرار التخلص من أولاد العبرانيين دون جدوى.

ومن هناك انطلقت عربة الملكة الشابة الجميلة التي تبلغ من العمر ٢٥ سنة، مع وصيفتها وسائق العربة فقط بعيداً عن مخيم البحيرة، كما دأبت كل أسبوع، منذ أن ماتت الملكة الأم جميلة الوجه حتب حورس في ظروف غامضة قبل عام، لتزور معبد ميدوم، ذلك المعبد الذي كان أبوها الملك «سنفرو» يأخذها إليه عندما كانت طفلة صغيرة، وهي التي آمنت سراً بدين جدّها الملك زوسر ووزيره النبي العبراني «إمحتب»، وما تزال تتعبد فيه بمعزل عن صخب القصر.

وعندما أوشكت عربتهم على بلوغ معبد ميدوم تراءى لهم موكب ضخم قريباً من هرم ميدوم، فظنت أنه موكب الملك خوفو.. لذا طلبت من سائقها الالتفاف،

حتى تصل إلى المعبد دون أن يراها أحد من مرافقي الملك ومساعديه، فهي في هذا اليوم معتادة أن تقضي وقتها لوحدها، وهي غير مستعدة لإفساد يومها.

وعندما دخلت المعبد وأدّت صلواتها ودعاءها، حان وقت خروجها، لكنها شعرت فجأة بالفضول لمعرفة سر حضور الملك لهرم ميدوم خلاف عادته، فقصدت الطريق الخفي الذي يربط المعبد بالهرم، والذي أعلمها به والدها الملك «سنفرو» لوحدها، وعندما بلغت نهاية النفق، سمعت صوت اثنين من الرجال يتحدثان في الفسحة المؤدية لحجرة الدفن، فيقول الأوّل:

– نعم يا سيدي.. هذا السم يقتل من المرة الأولى التي يتناوله فيها الإنسان..

ردّ عليه الصوت الثاني:

– ستكون لك جائزة ثمينة إن نجح الأمر..

حالما سمعت الملكة الصوت الثاني عرفته تماماً.. إنه هو لا محالة.. الوزير «حم إيونو».. فقالت في نفسها: «ترى لأي شر يخطط هذا الأفّاك؟»

التفّت الملكة ميريتيتيس داخل النفق الضيق، فعلق طرف ثوبها بإحدى الصخور، فتعثرت وارتطمت رجلها بالصخرة التي تغلق فتحة الممر من جهة الهرم، فسمع الرجلان الصوت، واقترب الوزير «حم إيونو» من الصخرة وتلمّسها لتنفتح له عن باب نحو ممر ضيق، فدخل زاحفاً من خلاله، ثم توقف ليلتقط قطعة ممزقة من ثوب كتان مطرّز بخيوط ذهبية، ثم أكمل زحفه خلال الممر حتى وصل إلى نهايته المغلقة، فعاد أدراجه، وأغلق الصخرة مجدداً.

في تلك الأثناء كانت الملكة ميريتيتيس تختبيء في زاوية مظلمة من النفق، وقد تجمّد الدم في عروقها من شدة الرعب، فتسللت عائدة نحو المعبد، وفرّت بسرعة إلى عربتها.

وبعد أن قضت يومين في استراحتها على شاطيء البحيرة، عاد موكبها نحو العاصمة الملكية أون، حيث فوجئت بأفراد البلاط الملكي يعملون على قدم وساق لإكمال التحضيرات لتنفيذ قرار الملك خوفو بالقيام بزيارة جنوب مصر، والاحتفال هناك بعيد «سد» هذا العام.

عرفت الملكة أنها لن تتمكن من إخبار الملك بما سمعته من الوزير «حم إيونو» لأنه لم يكن ليصدقها أبداً، فهو يثق بوزيره ثقة مطلقة لا يزعزعها شيء، لكنها بدلاً من ذلك طلبت منه أن يمنع الوزير من مرافقته في هذه الرحلة، وأقنعته بأن ظهور الملك لوحده سيبهر سكان الجنوب ويجعلهم يتعلقون به وحده.

فوافق الملك على طلبها فوراً، وسارت معه حتى بلغا منجرة مراكب الشمس حيث كان الوزير يعكف على إتمام مراكب الشمس التي طلبها الملك خوفو، فأبلغه الملك بقراره، وأن على الوزير البقاء في أون للعمل على إنجاز هذه المراكب.

نظر الوزير «حم إيونو» نحو الملكة ميريتيتيس، ثم أحنى رأسه طاعة لأمر الملك، بينما كانت يده في جيبه قابضة بغضب على قطعة الثوب التي عثر عليها في نفق ميدوم.

وفي اليوم التالي، وقبل أن يغادر الملك في رحلته كان يقول للملكة ميريتيتيس:

– سأحتفل بين الناس بالعيد، إلا أنّ احتفالي الحقيقي عندما أعود لأراك يا عزيزتي.. أعدك أن أعود قبل يوم من ذكرى مولدك السادس والعشرين..

بعد يومين من انطلاق موكب الملك نحو الجنوب، كانت زوجتا الملك؛ الملكة الشابة ميريتيتيس، والملكة حنوتسن أم أولاده جالستين في شرفة القصر، فقالت الملكة حنوتسن:

– ألم يكن من الأجدى أن ترافق إحدانا الملك في رحلته يا ميريتيتيس؟

فابتسمت الملكة الشابة وقالت:

– لن يتأخر الملك طويلاً حتى يكون بيننا..

فضحكت الملكتان معاً..

في تلك الأثناء دخلت الوصيفة حاملة معها كأسين من عصير قرمزي اللون، وضعتهما بهدوء أمام الملكتين، فسألتها الملكة ميريتيتيس:

– ما هذا العصير الغريب اللون؟

فقالت الوصيفة:

– قد وصل إلى القصر طازجاً هذا اليوم يا مولاتي..

قامت الملكة حنوتسن تستأذن بالانصراف، فقالت لها الملكة ميريتيتيس:

– لكنك لم تشربي كأسك بعد..

فابتسمت لها الملكة حنوتسن وقالت:

– أنت تعلمين بأني لا أرغب في شرب العصائر..

فضحكت الملكة ميريتيتيس وقالت:

– نعم.. نعم.. لقد نسيت حقاً.. سأشربه لوحدي إذن..

عندما ارتشفت الملكة ميريتيتس بضع رشفات، شعرت بدوار شديد، وألم قوي في البطن، وما هي إلا لحظات حتى سقطت مغشياً عليها.

واجتمع أطباء القصر بأكملهم لإسعافها، إلا أنهم أعلنوا خلال ساعة واحدة أن الملكة ميريتيتيس لم تعد تقوى على الحركة أو النطق بتأثير سمّ شديد.

أمر الوزير «حم إيونو» بسجن جميع العاملين في مطبخ القصر، وتفتيش أغراضهم، بعد أن سمع بإعلان الأطباء.

وعندما بلغ الملك خوفو هذا الخبر، أمر بإلغاء العيد ذلك العام، وعاد أدراجه فوراً صوب العاصمة، وكلما اقترب منها جاءته الأخبار السيئة عن شدة مرض الملكة الشابة ميريتيتيس.

وعندما لم يبق على وصول الملك سوى يوم واحد، جاء الوزير «حم إيونو» لزيارة الملكة ميريتيتيس التي كانت طريحة الفراش لا تقوى على الكلام أو الحركة، فلما رأته شخصت عيناها من الرعب، فنظر الوزير إليها وعرف أنها تعلم أكثر مما ينبغي.

فأمر بخروج جميع الوصيفات وبقي مع الملكة لوحده، فأخرج من جيبه قارورة صغيرة فيها محلول قرمزي اللون، فاقترب من الملكة التي كانت عاجزة

عن الحركة، وبدأ يفرغ المحلول في فمها، وأطبقه بيده بقوة، وهو يهمس في أذنيها: «كما فعلتُ بحتب حرس من قبل، أفعل بكِ الآن.. لن تحرميني أنت ولا دينك، دين العبرانيين من ملك مصر.. ولن تعيشي حتى تبلغي السادسة والعشرين».

***

دار البشير للثقافة والعلوم

(٣٤)

بعد ٤٦٠٠ سنة:

لم تكن الرحلات إلى برلين متوفرة لبضعة أيام، وكانت أول رحلة لألمانيا تهبط في مطار هانوفر الذي يبعد عن برلين نحو ٢٦٠ كيلومتراً، وعندما هبطت الطائرة فيه، اقترح هشام أن يقصدا مدينة هيلدسهايم القريبة التي تبعد نحو ٣٠ كيلومتراً فقط، ليبيتا ليلتهما هناك، ثم يزورا في الصباح متحف المدينة الذي يحتوي على مجموعة آثار مصرية، ثم يتجهان صوب برلين.

وفي الصباح اتصلا بالدكتور شعبان والدكتور جورج عبر النت بينما كانا يقصدان متحف هيلدسهايم، حيث أخبرهما الدكتور جورج عن بردية وستكار، وما جرى لهما هناك، ثم سأل الدكتور جورج سؤالاً للجميع:

- بقي لنا سؤال واحد يحل كل شيء.. أين سكن بنو إسرائيل عندما كانوا في مصر؟

فقالت آسيا:

- إن كنا متفقين على أن مكوثهم كان في عهد الأسرة الثالثة والرابعة، فمن المتوقع أن يكونوا في أطراف منف عاصمة مصر في حينها..

فقال الدكتور جورج:

- هذا محتمل.. ولكن لا توجد مدينة هنا اسمها جاسان أو رعمسيس، أو فيثوم وهي المدن التي ذكرت في العهد القديم..

فقال الدكتور شعبان فجأة وكأنه تنبّه لشيء:

– لِمَ لا تكون فيثوم هي الفيّوم؟

نظر الجميع نحو الدكتور شعبان باستغراب، لكن الفكرة كانت ممكنة لدى الجميع، فقال الأستاذ هشام:

– الفيّوم مدينة قديمة.. ولها تاريخ فرعوني.. وهي فعلاً في أطراف العاصمة منف.. وبعض المعالم فيها تسمى بتسميات قد تكون ذات دلالة.. مثل بحر يوسف..

فقال الدكتور شعبان:

– وما هو بحر يوسف؟

فأجاب الأستاذ هشام:

– هو القناة التي حفرت في زمن الفراعنة وتسمح بمرور الماء من النيل نحو دلتا الفيوم وانتهاء بالبحيرة التي أمامكما..

فعاد الدكتور شعبان ليسأل:

– ومن الذي أسماها بحر يوسف؟

فأجاب الأستاذ هشام:

– يقال إن العرب أسموها كذلك.. لكن العرب لم يغيروا في أسماء المناطق حقيقة.. ربما عرّبوها فقط..

وقفت سيارة الأجرة عند باب متحف هيلدسهايم، فدخل الشابان إليه وتجولا في أرجائه، وكان الدكتور جورج والدكتور شعبان يستمتعان معهما بمشاهدة المعروضات الأثرية عبر الفيديو، وقال الدكتور جورج:

– بالمناسبة.. لقد وجدت اختلافاً آخر بين العهد القديم والقرآن.. ففي العهد القديم كان النبي موسى في النهر قبل أن ينتشل منه، بينما في القرآن إنه كان في اليمّ.. فأيهما أصوب؟

فقال الأستاذ هشام متحمساً:

– يا الله.. قد يكون سؤالك هذا تأكيداً لوجود بني إسرائيل في الفيوم..

فسأله الدكتور جورج وقد انتبه له:

– كيف ذلك؟

فقال الأستاذ هشام وهو ما زال سائراً مع آسيا في أروقة المتحف:

– اسم الفيوم في اللغة المصرية القديمة مأخوذ من كلمة «بايم» ويعني «البحر»، ثم تطوّر نطق الاسم إلى «بايوم» و«فيّوم»، وأما البحيرة التي أمامكما فاسمها في اللغة المصرية القديمة «مر–ور» وتعني «البحر الكبير».. لكن مهلاً.. هل تعلمان أنّ بحيرة الفيّوم التي أمامكما اسمها أيضاً: «بحيرة قارون»؟..

ذهل الدكتور جورج والدكتور شعبان من هذه المعلومات التي يلقيها عليهما الأستاذ هشام لأول مرة، فقال الدكتور شعبان:

– يا الله.. هل يمكن أن نكون أمام المكان الذي خسف الله به الأرض بقارون وكنوزه؟

لكن دهشتها قطعها صوت الأستاذ هشام وهو يقول:

– ها قد بلغنا تمثال الوزير «حم إيونو»..

ثم صاح فجأة:

– آسيا.. آسيا.. أرجوك..

وكانت آسيا شاخصة العينين وهي تقف أمام تمثال (حم إيونو) ثم قالت:

– هامان.. قتل الملكة قبل أن تبلغ عامها السادس والعشرين..

سمع الدكتور شعبان والدكتور جورج بوضوح كلمات آسيا قبل أن ينقطع اتصال الفيديو عبر النت، وبينما حاول الدكتور شعبان أن يتصل مجدداً، كان الدكتور جورج واقفاً يقول:

– حم إيونو.. هم اون.. هامون.. هامان.. إنه هو فعلاً.. إذن فنحن فعلاً في مدينة فيثوم.. مدينة العبرانيين.. وأمامنا بحيرة قارون.. حيث خسفت داره المليئة بالكنوز.. يا إلهي..

كان الدكتور شعبان مستمراً بمحاولة الاتصال بآسيا وهشام قبل أن يسمع صوتاً قوياً يقول:

– لا تحاول الاتصال يا دكتور.. لقد قطعت النت..

جفل الرجلان ووقفا فوراً، فشاهدا السيد كيفن يصوّب نحوهما مسدساً، والشر باد على وجهه، فلم ينطقا بكلمة واحدة من الدهشة، بينما كان السيد كيفن يرفع شعره الأسود المستعار لتظهر بضع شعرات شقراوات، ثم مسح صبغة وجهه الأسود، وخلع عدسات عينيه، عند ذلك قال الدكتور جورج، وقد عرف أخيراً أن السيد كيفن هو السيد هاملر:

– هذا يفسر كيفية الحصول على تأشيرات السفر إلى إلمانيا بسهولة..

ثم قال الدكتور شعبان وقد عرف هو أيضاً السيد هاملر:

– ويفسر انسداد باب هرم ميدوم..

وانهار في كرسيه فوراً.

وعاد الدكتور جورج ليقول:

– احذر يا هاملر أن ترتكب خطأ جسيماً..

فقال السيد هاملر وهو يبتسم ابتسامة ماكرة:

– خطأ من أي نوع يا صديقي؟ أنا لن أرتكب الخطأ الذي ارتكبه أبي عندما وضع ثقته بشاب مخادع وأعطاه اسماً مزوراً ليسافر به إلى الولايات المتحدة، ويصبح عالماً كبيراً.. كما أنني لن أرتكب خطأ من نوع ثانٍ فأترك من خلفي صندوقاً أثرياً فارغاً مكتوب عليه «وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون» في كهف أثري.. أليس كذلك يا إبراهام؟

كان العرق يتصبّب من على جبين الدكتور جورج وهو يواجه تلك الذكريات التي أوشك أن يمحوها من ذاكرته تماماً، بينما بقي الدكتور شعبان ينقل عينيه

مندهشاً بين هذا وذاك، وقد عقدت المفاجأة لسانه. فالتفت إليه السيد هاملر قائلاً:

– أما أنت يا شعبان.. فستدفع اليوم ثمن تحديك لي، وهروبك مني..

في تلك اللحظة قال الدكتور جورج فوراً:

– يمكنك أن تقتلني يا هاملر.. أمّا الدكتور شعبان فقد اتفق مع آسيا أن يرسل لها كل يوم رسالة فيها كلمة سرية.. ومتى تأخر إرسال الكلمة تعلم الفتاة أن أباها في خطر فتتصل بالسلطات..

فقال السيد هاملر فوراً:

– لا تخف يا عزيزي.. لن تموتا في هذه اللحظة.. علي أن أجد كنز قارون أولاً.. قد أحتاج إليكما في أية لحظة..

في هيلدسهايم، كانت آسيا قد بدأت تستعيد وعيها في غرفة الفندق، إلا أنها بدت شاحبة الوجه ومتعبة أكثر من أي مرة سابقة، وفور استيقاظها قالت للأستاذ هشام:

– أرجوك افتح الظرف الذي اعطاه لي أبي، واقرأ ما فيه..

وفتح هشام الظرف ليستخرج منه ثلاثة أوراق قديمة كتبت قبل ٢٥ سنة، وهي رسالة من الدكتورة مريم عبد السلام إلى آسيا، تشرح لها فيها كل شيء، وبعد أن قرأ هشام الرسالة كاملة وجد قصاصة ورق صغيرة في داخل الظرف، مكتوب فيها بخط الدكتور شعبان: «لا تعودا لمصر أبداً»..

أما في عزبة الفيوم، فقد كان الدكتور جورج والدكتور شعبان مقيدين بحبال متينة على كرسيين متقابلين، يراقبان عبر زجاج النافذة السيد هاملر وهو يحمل معه عدة الغوص وأعواد الديناميت وقد هيأ قارباً بمحرك قوي لهذا الغرض، ثم انطلق في عرض البحيرة بحثاً عن كنز قارون.

بعد بضعة محاولات غير مجدية للتخلص من القيد، استرخا الرجلان في مقعديهما مستسلمين لمصيرهما، فقال الدكتور شعبان بحزن شديد:

– ستبلغ آسيا السادسة والعشرين من العمر غداً..

لم يقل الدكتور جورج شيئاً وبقي ينظر لصاحبه بيأس، فعاد الدكتور شعبان ليقول وكأنه يكلم نفسه:

– لقد قالت إن هامان قتل الملكة قبل أن تبلغ السادسة والعشرين.. هذا يعني أنها هي أيضاً لن تعيش أطول من ذلك..

فقال الدكتور جورج:

– لا تكن أحمق يا صديقي.. هي بخير مع هشام.. لقد أراد هاملر إبعادها مع هشام عنا بعد أن تأكد بعدم معرفتهما بقصته ليتمكن من التخلص منا دون أن يُتهم بشيء..

ثم قال بعد لحظات:

– أنا الذي أتحمل المسؤولية.. أنا الذي خططت له فكرة ادعاء الموت..

فدهش الدكتور شعبان وامتلأ غضباً وصرخ:

– ماذا تقول؟ أنت وراء هذه الفكرة؟ كم كذبة تخفيها يا مخادع.. كنت أعرف أنه لا يمكن الوثوق بك..

بقي الدكتور جورج مطأطيء الرأس وهو يسمع شتائم الدكتور شعبان، التي كان يشعر أنه يستحقها، وبعد أن هدأ الدكتور شعبان قال له الدكتور جورج:

– نعم.. أنا أستحق كل ما ذكرت.. عندما كنت أنت مختفياً كان كل همي هو الوصول إليك واختبار الذاكرة الوراثية ومحاولة تنفيذ عملية استنساخ خلية بشرية.. خلية آخذها من عصا أثرية أحتفظ بها.. لكنني الآن لم أعد أريد شيئاً سوى أن أصلح ما أفسدت..

هدأ الدكتور شعبان لسماع كلامه، وشعر لأول مرة بأنه صادق المشاعر، فقال بصوت خافت:

– أتمنى أن تكون آسيا بخير..

قضى الرجلان ليلتهما مقيّدين حتى أطلّ الفجر بخيوطه الفضية، فما إن ألقى لمساته على أجفان العجوزين حتى سمعا صوت طفل يبكي، ففتحا أعينهما معاً وقال الدكتور جورج:

– هل يخيّل إليّ أني أسمع صوت ابن الماء؟

فقال الدكتور شعبان وهو سعيد:

– بل هو صوت ابن الخادمة..

وصاح الرجلان معاً بأعلى صوتيهما طلباً للمساعدة، حتى أقبلت إليهما الخادمة وبدأت حلّ أربطتهما.

أما هاملر فقد قضى ليلته في الغوص تحت مياه البحيرة وتحديد أرجح الأماكن للتنقيب، وقد أعانته بنيته الرياضية على كل ذاك الجهد البدني. وما إن

أوشك الفجر على البزوغ حتى كان قد حدّد مكاناً يشبه أن يكون جرفاً صخرياً نازلاً، فكأنه بقايا خسف أرضي، فقرر البدء من هناك.

ربط أعواد الديناميت بدقة حول الجرف، ثم اتخذ له فتيلاً طويلاً ليسمح له بالخروج من الماء نحو الزورق، ثم الابتعاد بقدر كافٍ وآمن.

وبعد أن تأكد من دقة عمله، أشعل الفتيل، واندفع عائداً لسطح الماء لكنه لحظة اندفاعه ضرب برجله على قاع الجرف الصخري فنفذ قضيب حديدي قديم في سمانة ساقه اليمنى، فصرخ من شدة الألم، ثم حاول تخليص ساقه من القضيب دون جدوى، وبعد لحظات تذكر فتيل الإشعال، فالتفت إليه لينتزعه إلا أنه كان قد ابتعد عنه وقد أصبح أقرب إلى أعواد الديناميت، ولا تطاله يده.

وبينما هو في ورطته تلك أبصر من تحت سطح البحيرة قارباً قديماً يقترب من زورقه، وبعد لحظات نزل منه الدكتور جورج إلى الماء، فجال بنظره تحت الماء سريعاً فأدرك المشكلة، وعرف أن أمامه دقائق قليلة فحسب، فأخرج رأسه إلى السطح وأمر الدكتور شعبان بالابتعاد بأقصى سرعته لأن المكان سرعان ما سينفجر. أمّا هو فغاص مجدداً نحو السيد هاملر، وبدأ يحاول إخراج رجله التي كانت مقيّدة بقضيب الحديد، وفي تلك اللحظات أحسّ الدكتور جورج بيد تحاول سحبه من مكانه، فنظر وإذا هو الدكتور شعبان وقد غاص هو الآخر لينقذ صاحبه من موت وشيك.

مرّت دقيقتان أو ثلاث على محاولاتهما الفاشلة، إلا أنهما استمرا بالمحاولة، ثم بلحظة واحدة انفجر المكان برمته، ودفع الانفجار بالدكتور جورج والدكتور شعبان بعيداً بينما لقي السيد هاملر مصيره وهو عالق في قلب المكان.

وما هي إلا لحظات حتى عمّ الهدوء المكان، فكان الدكتور شعبان والدكتور جورج غير قادرين على تحريك جسميهما من شدة الانفجار، لكنّ أعينهما وقعت على قلب مكان الانفجار الذي بدا مثل كوّة مفتوحة على كهف داخلي حيث لاح فيه ذلك اللمعان الذي يأخذ ألباب الناس، كان الكهف القابع تحت الجرف الصخري مليئاً بالذهب، وحالما توضّح منظره أكثر، انهار كل الجرف الصخري غائراً لأعماق سحيقة، وتشكل تيار مائي ساحب بقوة، وشاهد العجوزان ما تبقى من جثة السيد هاملر يغوص في أعماق ذلك الغور، مع الذهب الذي كان يبحث عنه.

وعندما كاد التيار المائي أن يسحبهما أيضاً، شعرا فجأة بأيدٍ تمسك بهما وتسحبهما نحو السطح ثم إلى داخل قارب كبير، ففتحا أعينهما وتبيّن لهما أنّ المنقذين هما هشام وآسيا.

نظر الدكتور جورج نحو الأستاذ هشام الذي سأله:

– هل مات السيد كيفن؟

فقال الدكتور جورج وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

– كان اسمه هاملر وليس كيفن.. هاملر الذي سبق له أن مات من قبل..

أمّا الدكتور شعبان فكان ينظر نحو آسيا التي كانت قلقة عليه فابتسم لها وهو يراقب عينيها الجميلتين تشعان، وفور أن رأته يبتسم اطمأنت وقالت مبتسمة:

– يبدو أن قدري مرتبط بانتشال أحبابي من الماء..

الفصل الأخير

(٣٥)

عندما وقف الدكتور جورج ستيفن عند باب مطار القاهرة، والتفت ليودع صديقه الدكتور شعبان، لم تكن الابتسامة التي على وجهه صفراء باهتة، بل كانت مفعمة بالروح والحب، فقال قاصداً ملاطفة صديقه:

– لم تفِ بوعدك لي يا دكتور.. ولم تسدّد ما عليك من الاتفاق.. هل تنتهي القصة بأني الخاسر الوحيد؟

فردّ عليه الدكتور شعبان مبتسماً:

– بل أنت الرابح الأكبر يا صديقي..

فقال الدكتور جورج موافقاً:

– هذا صحيح.. لقد ربحت الإيمان..

فقال الدكتور شعبان:

– إيمان من سبق؟ أم إيمان من لحق؟

فضحك الدكتور جورج طويلاً ثم قال:

– سمعت أن العرب يقولون: الفضل لمن سبق..

فقال الدكتور شعبان:

– بل الفضل لمن صدق..

فهزّ الدكتور جورج رأسه موافقاً، ولوّح بيده مودعاً، ثم قال:

– ألن تعطيني موعداً آخر لتنفيذ الاتفاق؟

فقال الدكتور شعبان وهو يلوّح لصديقه ويبتسم بمكر:

– إن جلد الأفعى لا يحتفظ ببصمة الإنسان يا صديقي..

وافترق الرجلان على خير مما التقيا عليه.

وبعد ثلاثة أشهر:

كانت أربعة أقلام تكتب في أربعة أماكن متفرقة..

فطالبة الماجستير آسيا كانت تمسك قلمها وتكتب الإهداء على مسوّدة بحث الماجستير الذي أسمته «المرأة في الحضارة الفرعونية»، فكتبت:

«إلى أمي.. شهيدة العلم.. الدكتورة مريم عبد السلام.»

بينما كان الدكتور شعبان يفترش الأرض في حديقة جميلة، مسنداً ظهره لجذع شجرة ضخمة في بيت قديم مهجور في أطراف نيقوسيا، وقد امتد أمامه قبر قديم، وكان بيده ظرف معنون إلى معهد الهندسة الوراثية في القاهرة، وفي الورقة التي كانت بين يديه كتب الدكتور شعبان السطر الأخير من استنتاجاته قبل أن يضعها في الظرف:

«.. وبهذا تبيّن لنا أنّ تجربة الاستنساخ يمكن أن تنقل الذاكرة الوراثية إلا أنها تنقل مسببات أمراض إنسان ذلك الزمان وأسباب هلاكه، ولذا فلا نوصي

بتجربتها حفاظاً على ديمومة الحياة.. انتهى»

وفي الولايات المتحدة، كان الدكتور جورج ستيفن يمسك قلمه ليكتب لزملائه الذين التفوا من حوله انتظاراً للبحث الذي وعدهم به في مؤتمر علماء الآثار، فأخذ نفساً عميقاً، وابتسم ابتسامة هادئة ذات مغزى وكتب:

«مقاربات النصوص الدينية مع المكتشفات الأثرية.. رؤية مقارنة بين العهد القديم والقرآن»

وفي مصر، وبعد أن أنهى الأستاذ هشام للتو مكالمة من بغداد مع عروسه الجميلة آسيا، فتح الصفحة الأولى من دفتر أبيض أنيق كان قد اشتراه لكتابة روايته الأولى، فخطّ عليها بخط جميل وبارز:

(خطوات ابن الماء)

دار البشير للثقافة والعلوم

خطوات ابن الماء

إذا أردنا اختيار وصف غالب لهذه الرواية ، فسيكون "التنوّع " في أركانها جميعاً:
فهي تُراوح برشاقة مُعجِبة بين الحاضر والماضي دون تقطيع لأوصال النصّ ومن غير قطع لسلاسل أفكار القارئ.. هذا من حيث "الزمان" .
وهي تبدأ في العراق ثمّ تستقرّ في مصر، متنقّلة بين أصقاع كثيرة من هذا العالم الرحيب: أمريكا - قُبرص - فلسطين - ألمانيا - أوكرانيا.. وهذا من حيث "المكان".
وهي تعالج عقائد دينيّة مُعرِقة في القِدم (مثيولوجيا) وعقائد سماويّة، ومباحث آثاريّة (أركيولوجيا)، ونظريات وراثة، وطبّ، وتمسّ مباحث اللغة مَسّاً شفيفاً لا يُعقّد المشهد على القارئ.. وهذا من حيث "المعارف".
وهي تُنعِم النظر في التفاصيل وتجود بها؛ فتنقل للقارئ بإبداع وصفَ المكان والزمان والشخصيات وانفعالاتهم التي ترتسم على وجوههم وما يعتمل في دواخلهم من حوار وما يتأجّج من صراع.. وهذا من حيث "التفاصيل" .
هي تقدّم ذلك كلّه بريشة فنّانٍ، مَلَك الأدوات التي تقومُ بعملٍ روائيّ مُكتمل الأركان، وتقدّمُ نصّاً أدبيّاً مشحوناً بآيات الحُسن والجمال..
كلّ ذلك مع تأسيس رصين للنصّ وبناء شاهق للمشهد وقوّة في السرد والحبكة..

الناشر

عمر خير الدين الأيوبي
طبيب وشاعر وكاتب عراقيّ، من مواليد عام 1974م.
له عدد من الأبحاث والأعمال العلمية والأدبية المنشورة.
مهتم بدراسة التاريخ والاجتماع وعلم الأديان المقارن.

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

ISBN 978-977-278-848-4

9 789772 788484

01012355714 - 01152806533
elbasheernashr@gmail.com
elbasheer.marketing@gmail.com
www.darelbasheer.net

دار البشير